

جامعة محمد الصديق بن يحيى - جيجل -

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم علم الاجتماع

كتاب بيداغوجي حول

الدراسات المؤسسة في علم الاجتماع

إعداد الأستاذة: ميلاط صبرينة

أستاذ محاضر "أ"

السنة الجامعية

2024 - 2023

01	مقدمة
05	أولاً: نشأة علم الاجتماع وتطوره
14	ثانياً: الانتحار عند إميل دوركايم
22	ثالثاً: دراسة الفلاح البولندي لويليم توماس وفلوريان زنانكي
28	رابعاً: تجارب هاوثورن - العلاقات الإنسانية - لجورج إلتون مايو
35	خامساً: دراسة 'ميدل تاون' ل: روبرت وهلين ليند
46	سادساً: دراسة يانكي سيتي لـ 'ويد وارنر'
52	سابعاً: مجتمع في الشارع (مجتمع النواصي) لويليام فوت وايت
56	ثامناً: ثقافة الفقر: لويس أوسكار
65	تاسعاً: الأزمة الأمريكية: جونار ميردال
70	عاشراً: دراسة الجندي الأمريكي: صامويل ستوفر
76	إحدى عشر: الغرباء 'الوصم الاجتماعي': هوارد بيكر
85-82	قائمة المراجع والمصادر

الانتحار عند إميل دوركايم

نشأ إميل دوركايم في الفترة 1858-1917 في إينال بفرنسا لأسرة ذات تاريخ طويل في تولي أفرادها المناصب الدينية اليهودية وكان دوركايم يدرس ليصبح حاخاما، ولكنه خلال فترة المراهقة تمرد على تراث أسرته، وتولى مذهب اللاأدرية* فأصبح اهتمام دوركايم بالدين علميا وليس لاهوتيا.

ارتاد المدرسة العليا للنور عام 1879 حيث درس فيها الفلسفة وتخرج منها عام 1882 وبدأ في تدريس الفلسفة ثم عين مدرسا لعلم أصول التدريس والعلوم الاجتماعية في جامعة بوردو عام 1887 فدرس هناك أولى دورات علم الاجتماع الرسمية في فرنسا.

ساهم في العديد من الأطروحات التي عززت نجاحه، أطروحة الدكتوراه الخاصة به حول تقسيم العمل الاجتماعي والتي نشرت عام 1893 وقواعد الطريقة الاجتماعية 1895 ثم دراسته الشهيرة حول الانتحار عام 1897.

أنشأ دوركايم مجلة السنة الاجتماعية *année sociologique* عام 1896 والتي عزز بواسطتها مكانة علم الاجتماع في الحقل الأكاديمي، وشغل كرئيس علوم التربية في جامعة السوربون عام 1902. قدم أحد أهم أعماله سنة 1912 حول الأشكال الأولية للحياة الدينية. قدم إميل دوركايم العديد من المساهمات في الفلسفة وعلم الاجتماع لعل أهمها تأسيس علم الاجتماع والطريقة الاجتماعية وقواعد المنهج الاجتماعي.

إميل دوركايم:

اهتم دوركايم خلال حياته المهنية بثلاثة أهداف:

- تأسيس علم الاجتماع كنظام وحقل أكاديمي جديد.

- تحليل كيف يمكن للمجتمعات الحفاظ على إدماجها الاجتماعي في العصر الحديث في الوقت الذي لم يعد من الممكن افتراض أشياء مثل الخلفية الدينية والعرقية المشتركة تحقيقا لهذه الغاية.

* - الأدرية (الأغنوستية Agnosticism): مصطلح إغريقي وهي توجه فلسفي يؤمن بأن القيم الحقيقية للقضايا الدينية أو الغيبية غير موجودة وغير محددة ول يمكن لأحد تحديدها وهي غامضة ولا يمكن معرفتها وهي مجرد تعليق للإيمان وليس الكفر والإلحاد، فالأدرية موقف فلسفي يؤكد أن الإنسانية تفتقر الأسس المنطقية لتبرير أي معتقد.

- اهتم بالآثار العلمية للمعرفة العلمية.

بالنسبة لإميل دوركايم فإن علم الاجتماع ليس علماً مساعداً لعلم آخر بل علم متميز ومستقل بحد ذاته، وله كيان متميز ومستقل عن الفلسفة أو علم النفس، كما لديه منهجية خاصة به. كما أن الهدف الوظيفي لعلم الاجتماع هو اكتشاف بنيه الحقائق الاجتماعية.

حدد خصائص الظاهرة الاجتماعية فيما يلي:

- الظاهرة الاجتماعية موضوعية: ولها وجود خاص خارج عن شعور الأفراد الذين يلاحظونها ويحسون بها، لأنها ليست من صنعهم بل يتلقونها من المجتمع الذي ينتمون إليه.

- هي ليست وليدة التفكير الذاتي للأفراد، بل العكس التفكير الذاتي ينشأ من طبيعة الظواهر الاجتماعية المحيطة بنا منذ الولادة.

- الظواهر الاجتماعية ظواهر شائعة فهي أشياء خارجية عن شعور الأفراد، وهم يقبلون هذه الظاهرة ويخضعون لها ويستسلمون لها كما لو كانت قوى خارجية، وهم لا حول ولا قوة لهم في تغييرها أو تبديلها، تفرض إرادتها على الأفراد بموجب أحكام ونصوص قوس (اللغة والدين والقانون والدستور والأعراف والمعتقدات والتقاليد... إلخ)¹

قواعد المنهج عند إميل دوركايم:²

- ضرورة تحرر الباحث الاجتماعي بصورة كلية من كل فكرة سابقة يعرفها عن الظاهرة موضوع الدراسة والبحث.

- ضرورة تخصيص مبحث أو فصل من البحث لتحديد معنى المصطلحات والمفاهيم العلمية التي يستخدمها الباحث.

- البدء بملاحظة هذه الظواهر للتوصل إلى الصفات الثابتة التي تكشف لنا عن حقيقة الظواهر الاجتماعية بغية الوصول إلى القوانين التي تخضع لها.

التفسير الاجتماعي للانتحار:

لم يكن دوركايم مهتما بدراسة سبب الانتحار لشخص محدد فهذا يجب أن يترك لعلم النفس، لكن دوركايم كان مهتما بتوضيح التباين في معدلات الانتحار وخلص إلى أن معدلات الانتحار الاجتماعي يمكن توضيحها فقط سوسيولوجيا¹، أي تحليل الاجتماعي بالاجتماعي لأن العوامل الأهم في التغير في معدلات الانتحار يجب أن تكون في الاختلافات على مستوى الحقائق الاجتماعية.

تناول دوركايم ظاهرة الانتحار من خلال دراساته الأخلاقية والقيمية وقد حاول استخدام المنهج الإحصائي لظاهرة الانتحار وانتهى من دراسته إلى استنباط قانون اجتماعي عن الانتحار مفاده أن:²

- الميل إلى الانتحار يتناسب عكسيا مع درجة التكامل في المؤسسة الدينية ومع درجة التماسك في الأسرة ومع درجة الوحدة التي بلغتها المؤسسة السياسية. فكلما كانت هذه المؤسسات الثلاث (الدين، الأسرة، الدولة) قوية وفاعلة كلما اشتدت سلطتها على الأفراد الذين يلزمون إليها، وكلما انخفض عدد المنتحرين من أعضائها.

- لكن إذا ضعف كيان هذه المؤسسات ووهنت سلطتها أو اضمحل نفوذها وتحرر الأفراد من رقابتها وانهار الشعور الجمعي في نفوسهم وتغلبت عليهم الروح الفردية والأناية (لغياب الوازع الديني والأسري والسياسي) والتصرف حسب الإرادة الخاصة بعيدا عن المعايير الأخلاقية والقواعد الاجتماعية.*

تعتبر الدراسة التي قام بها دوركايم من أهم الدراسات التي نشرت في حياته فهي توضح طبيعة منهجيته العلمية السوسيولوجية التي اعتمدها في دراسته الظواهر الاجتماعية ومشكلات الحضارة والمجتمع.

أنواع الانتحار:

- انتحار الوحدةانية أو العزلة الاجتماعية أو الأناية.

- التضحية في سبيل الآخرين أو الإيثاري.
- التفسخ الاجتماعي أو اللامعاري أو الأنومي.
- الانتحار القدري.

(1) الانتحار الأناني: وهذا الانتحار يحدث بسبب النزعة الفردية المفرطة التي تقود إلى انعزال الفرد عن المجتمع (بسبب الفرد أو المجتمع) فهو لا يستطيع تكوين علاقة طبيعية مع المجتمع لعدم رضاه أو تذوقه لقوانين وعادات وتقاليد وقيم المجتمع وسخطه على نظامه ووضعه العام، والمجتمع هو الآخر لا يعطي المجال للفرد بالتفاعل معه والتفاعل والانسجام مع مؤسساته نظرا لتناقض ميوله واتجاهاته ومصالحه وأهدافه وقيمه مع تلك التي يؤمن بها الفرد وتصبح قضية الخطأ والصواب من القضايا التي يحددها الفرد بنفسه.¹

وهذا النوع من الانتحار يكثر في المجتمعات التي يكون فيها الفرد غير مندمج تماما في الوحدة الاجتماعية الكبرى، فالأنانية غير المكبوحه غالبا ما تقول إلى الاستياء والضجر الكبيرين من طرف الفرد الذي لا يستطيع إشباع كل حاجاته وتنعهد عنده معاني الحياة السامية ويفقد مثله وقيمه ومقاييسه بعد ذلك يصاب بمرض نفسي خطير يؤدي به إلى الانتحار.

هذا النوع يصيب عادة الأشخاص المعدمين والمحرومين الذين يعانون المشكلات والأمراض النفسية والعقلية.

وقد وجد دوركايم أن معدل انتحار مرتفع نسبيا لدى البروتستانت منه لدى الكاثوليك ثم لدى اليهود وفسرها بالنزعة الفردية الخاصة بكل دين، فهذه النزعة أي الفردية هي ضعيفة لدى اليهود.

وقد خلص إلى أن الدين يقي من ظاهرة الانتحار لحرصه على الانتماء والاندماج الاجتماعي للأفراد وتعزيز علاقاتهم الاجتماعية.

(2) الانتحار الإيثاري: وهو مناقض من حيث أسبابه ودوافعه لانتحار الوجدانية أو العزلة الاجتماعية فهو ناتج عن شدة تماسك وانسجام الفرد في الجماعة التي هي سبب وجوده وكيانه وقوته ولا يستطيع العيش بدونها وهو متأثر بتعاليمها وفلسفتها وأساليبها السلوكية ويكون مستعدا للتضحية بماله ونفسه من أجل بقائها واستمرارها إذا تعرضت للخطر والتهديد أو العدوان أو التفكك، وفي أحيان كثيرة ينتهج الصيغ الانتحارية لإنقاذها من مأزق التشتت والانحيار والفناء وإذا فشل في الإنقاذ يلجأ إلى الانتحار.

وبشكل عام فإن الذين يرتكبون فعل الانتحار الإيثاري يفعلون ذلك لأنهم يحسون أن ذلك هو واجبهم ويرى دوركايم أن الزيادة في معدلات الانتحار الإيثاري تأتي من الأمل لأنها تعتمد على الاعتقاد في التصور الجميل لما بعد هذه الحياة¹، وهذا ما يحدث تقريبا في باكستان مثلا العمليات الانتحارية.

(3) انتحار النفس الاجتماعي (الأنوميا، اللامعيارية): يظهر هذا النوع من الانتحار عندما يفشل المجتمع في السيطرة على السلوك وعلاقات أفرادهِ وعندما تنفسخ الأخلاق والآداب والقيم وتضعف العادات والتقاليد وتعم الفوضى والفساد في ربوع المجتمع، وهنا يفقد الفرد آماله وطموحاته وتضعف أو تنعدم عنده الرغبة في التفاعل مع الآخرين والانسجام معهم، وعندما يشعر الفرد بعدم قدرته على وضع حد لهذه الحالة المتفسخة والشاذة وعجزه عن تغيير المجتمع نحو الأفضل فيصاب باليأس والقنوط وانعدام الآمال والأهداف.

ويعيش المجتمع في هذا النوع من الانتحار حالة من الفوضى المعيارية نتيجة التغير السريع أو شيوع عدم الاستقرار في المجتمع وحدوث اضطرابات (سواء كانت إيجابية كالانتعاش الاقتصادي أو سلبية كالكساد الاقتصادي) فيفقد المجتمع دوره السلطوي على الأفراد، مما يغيب ضوابط البنيات الاجتماعية ويجعل الفرد فريسة لنزواته مما يؤدي إلى الانتحار، حيث أن فقدان هذا التوازن يؤدي إلى الأنوميا أي التفكك الاجتماعي.²

(4) الانتحار القدري: لم يله دوركايم أهمية كبيرة إلا أنه ذكره في محطات كثيرة حيث ينتج هذا النوع جراء التنظيم الاجتماعي القاهر وعندما تكون الضوابط الاجتماعية متجاوزة الحد المرغوب وتكون نزوات الأفراد ورغباتهم مخنوقة بعنف عن طريق نظام قهري مما يجعل الفرد عاجزا أمام القدر والمجتمع.

نتائج الدراسة:³

- الزواج المبكر غالبا ما يؤدي إلى الانتحار خاصة بين صنف الرجال.
- يقل الميل إلى الانتحار ابتداء من سن العشرين للمتزوجين من الجنسين عنه من غير المتزوجين.
- تزداد نسبة الانتحار بين النساء عنه بين الرجال.

1.-

2.-

- تقل نسبة الانتحار بين النساء غير المتزوجات عنها بين الرجال (ذلك لأنه في نظره الرجل يستفيد من الزواج أكثر من المرأة).

- تقل نسبة الانتحار بين الأرمال عنها بين المتزوجات.

- تقل نسبة الانتحار بين المتزوجين الذين لديهم أطفال عنها بين متزوجين بدون أطفال.

- يقل الانتحار كلما زاد حجم الأسرة.

- نسبة الانتحار عالية في المدن ومنخفضة في القرى والأرياف.

- يرى دوركايم أن 60% من الانتحار يكون في النهار و 22% في العصر وفي وسط النهار أي عندما تكون الحرارة أكثر ارتفاعا والشمس أكثر إشراقا يكون معدل الانتحار أقل منه عند العصر أو قبل الظهر.¹

هذه الدراسة انتقدت لعدة أسباب منطقية وعلمية:

- فهي تستند إلى استنتاجات إميل دوركايم حول السلوك الفردي (الانتحار) على إحصائيات اجتماعية لا يمكن تعميم هذه النتائج.

- تسميته لأنواع الانتحار وتقسيم خاطئ تعوزه الأدلة الواقعية ومناقض للبحوث العلمية، مثلا سلوك الإيثار ينتج عنه الراحة النفسية وليس السلوك الانتحاري.

- ما اكتشفه دوركايم لم يكن معدلات الانتحار وإنما عبارة عن طرق مختلفة للتفكير في الانتحار.

- ومن جهة أخرى وبصفة عامة فكرة الضمير الجمعي وأن الظاهرة الاجتماعية قهرية وملزمة وسابقة في وجودها على الفرد يلغي أي دور للفرد ويهدد حريته كما لا يمكن تفسير سلوك أعضاء المجتمع (فالمجتمع ليس مصدرا للسلوك لأن الفرد سابق في وجوده عن المجتمع فكيف يكون الفرع أصل الأصل).

- من الناحية المنهجية الضوابط التي وضعها دوركايم مثالية فلا يمكن أن يتحرر الباحث كليا من الذاتية والأفكار السابقة (لكن التحدث عن الموضوعية عن التفكير قدر الإمكان من الاعتبارات الذاتية في نتائج البحث).

¹ - يخلف رفيقة: مقرر دراسي حول الدراسات المؤسسة في علم الاجتماع تخصص علم الاجتماع العام للسنة الثالثة، السادسي الأول، 2023/2022

وخلص القول:

تعتبر دراسة دوركايم بمثابة تأسيس منهجي لعلم الاجتماع حيث استخدم فيها المنهج الإحصائي محاولاً إثبات علمية علم الاجتماع، فقد أثبت من خلال براهين علمية أن ظاهرة الانتحار يمكن دراستها سوسيولوجياً من خلال التركيز على الشروط والاحتمالات الاجتماعية المسببة لهذه الأفعال الفردية.

ثالثاً: دراسة الفلاح البولندي لويليم توماس وفلوريان زنانكي

تمهيد:

إن علم الاجتماع كاتجاه أكاديمي يعنى بدراسة المجتمع ويبحث في العلاقات الاجتماعية والجماعات وغيرها من المفاهيم ذات الصلة، نشأ وترعرع في أوروبا على يد الفرنسي 'أوغست كونت'، ووضع معالمه ومنهجه إميل دوركايم الذي نقله من مستوى التنظير إلى مستوى التطبيق والممارسة وحدد قواعد البحث الاجتماعي وطبق ذلك على دراسته الشهيرة التي تناولت موضوع الانتحار الذي كان يدرس آنذاك ويفسر تفسيرات سيكولوجية أو عرقي أو وراثية أو كنتيجة كونية (الطقس والحرارة) أو المحاكاة، وحاول دوركايم أن يستبعد هذه العوامل ويركز على التيارات والعوامل الاجتماعية التي تؤدي إلى الاختلاف والتباين في معدلات الانتحار من مجتمع لآخر ومن جماعة إلى جماعة أخرى باعتبار الفرد كان واعيا بأفعاله، لكن هناك حتميات اجتماعية ذات سلطة قوية عليه يجعله فريسة ظواهر اجتماعية قهريّة (فهو يركز على التداخل بين الصيغ الاجتماعية العامة والأفعال الفردية).

وفي هذه المحاضرة سوف نتناول دراسة 'الفلاح البولندي' لويليام توماس وفلوريان حول ظاهرة الهجرة وهي من أهم الظواهر الاجتماعية التي نالت اهتماما كبيرا من طرف علماء الاجتماع لاسيما في تلك الفترة لما لها من أهمية تكمن في التقاء ثقافتين متباينتين وما ينجم عنه من مسائل مرتبطة بالاندماج الاجتماعي وكذا التكيف مع الأوضاع الجديدة.

التعريف بويليام توماس 1863-1947:

هو عالم اجتماع وكاتب أمريكي من أصول هولندية من مواليد 13 أوت 1863 بمقاطعة راسل بولاية فرجينيا انتقل مع عائلته إلى تينيسي لحرض والده على تعليمه، تحصل على شهادة البكالوريا سنة 1884 ثم درس بجامعة تينيسي وأصبح أستاذا مساعدا في اللغة الإنجليزية ثم ذهب إلى ألمانيا لمواصلة دراسته والتحق بالعديد من الجامعات الألمانية التي تأثر بها¹. بعد عودته إلى الولايات المتحدة الأمريكية عمل أستاذا في اللغة الإنجليزية ثم أستاذا في علم الاجتماع في كلية أوبرلين كما دعي إلى التدريس بجامعة شيكاغو بذات التخصص عام 1894². حصل على منحة ضخمة لدراسة المشكلات المرتبطة بالهجرة الأوروبية إلى الولايات المتحدة الأمريكية وتم التركيز على الفلاحين البولنديين الذين يشكلون نسبة كبيرة من السكان الأجانب في شيكاغو ثم التقى بزنانكي في بولندا ونظما رحلة معا إلى الولايات المتحدة الأمريكية من أجل إتمام هذا العمل الذي يعتبر فريدا من نوعه كونه أول بحث ميداني في السوسيولوجية الأمريكية الذي نشر بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة. ومن إسهاماته المهمة معالجته لقضايا المجتمع والثقافة، وصف الأعراق البشرية، تطور شخصية الأفراد الطبيعيين والمجرمين... إلخ، ولكن إسهامه الأبرز كان حول

¹ -.

² - ص

الهجرة والثقافة والشخصية واشتهر في هذا المجال باستحدثاته لمفهوم القيم والمواقف وكذا استخدامه للسيرة الذاتية والحياتية في العلوم الاجتماعية وأصدر أكثر من 40 مطبوعة في مقدمتها دراسة 'الفلاح البولندي' في أوروبا وأمريكا، توفي في 5 ديسمبر 1947 بالولايات المتحدة الأمريكية.¹

التعريف بفلوريان زنانيكي 1882 إلى 1959:

ولد في بولندا وهو من الأوائل المؤسسين لعلم اجتماع البولندي من خلال المجلة البولندية وكذا إنشاء المعهد البولندي لعلم الاجتماع سنة 1914، وقد اشترك مع ويليام توماس في إنجاز كتاب بعنوان 'الفلاح البولندي' في أوروبا وأمريكا بالإنجليزية، حيث كانت هذه الدراسة قفزة نوعية في علم الاجتماع من حيث استخدام مناهج وتقنيات جديدة كالمذكرات الشخصية والسير الذاتية، فقد تم إعطاء أهمية كبيرة للعامل الفردي أي المعاني الاجتماعية التي يقدمها الأفراد لأفعالهم.

أفكار متصورات الدراسة:

يندرج هذا الموضوع تحت مجال علم الاجتماع الحضري الذي يهتم بدراسة المدينة كفضاء اجتماعي مسؤول عن بروز ظواهر اجتماعية جديدة خاصة ما تعلق منها بالتحويلات في المجتمع الحضري، وقد جاءت دراسة العالمان لمحاولة فهم المشاكل المرتبطة بالمهاجرين البولنديين إلى أمريكا وأوروبا.

تبدأ القصة من عامل في مخبزة (مهاجر) يدعى 'أولاديك' كان هدفه تأسيس مخبزة خاصة به وهو ينتمي إلى عائلة مكونة من 10 أطفال، أصبح والده صاحب نزل بعد أن كان فلاحا، هذا الصعود الاجتماعي وضع العائلة في حالة بينية (الفلاحين الفقراء من جهة والبرجوازية المحلية من جهة أخرى) ترك أولاديك المدرسة في سن 14 كي يتعلم مهنة الخباز ثم امتلك مخبزة خاصة به ولكن مع إشراك والديه اللذان يعيشان حسب التقاليد ويعاملانه كقاصر وعامل عندهما رغم أنه يعتبر صاحب المصلحة ومالكها (لا يوجد اعتراف منهما بالوظيفة الاجتماعية الجديدة) فهاجر أولاديك إلى أمريكا ووجد عمل هناك ثم تزوج وأنجب أطفالا وتعرش في عدة محطات في حياته الاجتماعية الجديدة وبعد الحرب العالمية الأولى حدثت أزمة اقتصادية أدت إلى إفلاسه ولكي يعيش باع أولاديك مذكراته اليومية بعد سماعه للنداء الذي قام به الباحثان توماس وزنانيكي اللذان قاما بتتبعه خطوة بخطوة، ليكرزوا بقوة على الفلاحين البولنديين المهاجرين وأهم التأثيرات التي خلفوها في مجتمعاتهم الأصلية وكذا صعوبة التكيف والاندماج

¹ - المرجع السابق، ص 31.

التي تلقوها في المجتمعات المستقبلية كل ذلك من خلال قراءة فهمية تحليلية للمعاني التي يقدمها هؤلاء المهاجرون في مختلف المواقف الاجتماعية الصادرة عنها.

الهدف من الدراسة:

الكشف عن التغيرات الاجتماعية التي طرأت على التنظيم الاجتماعي في المجتمع البولندي وقيم واتجاهات الفلاح البولندي نتيجة حركة الهجرة من بولندا إلى أوروبا وأمريكا والكشف عن مختلف العوامل الذاتية المؤثرة في الموقف الاجتماعي الذي يتجسد فيه التفاعل الاجتماعي للفلاحين مع محيطهم الاجتماعي سواء في البلد الأصلي أو البلد المستقبل.

مجالات الدراسة:

- المجال المكاني: يتمثل مجال الدراسة في:

✓ مناطق الطرد (بولندا) حيث تضمنت الدراسة وصفا تفصيليا لطبيعة المجتمع الريفي البولندي (طبيعة البناء الأسري ونظام الزواج والبناء الطبقي).

✓ مناطق الجذب الولايات المتحدة الأمريكية) للوقوف على مظاهر التفكك والانحلال الأخلاقي وإمكانية التكيف مع المجتمعات الجديدة.

- المجال الزمني: في عام 1908 حصل ويليام توماس على منحة ضخمة من مؤسسة خاصة لدراسة المشكلات المرتبطة بالهجرة الأوروبية إلى الولايات المتحدة الأمريكية، واستمرت إلى غاية عام 1918. وفي السنوات من 1918 إلى 1920 نشر العالمان كتابهما الموسوم ب'الفلاح البولندي'.

الاطار المنهجي للدراسة:

اعتمدت الدراسة على الاتجاه الذاتي الذي يضع في اعتباره ذات القائم بالفعل الاجتماعي وتفضيلاته وتقريبه لما حوله من موضوعات اجتماعية ونظرته الذاتية لهذه الأمور التي تتجسد وتشكل في صورة فعل الاجتماعي كما أخذت الدراسة بالاتجاه الموقفي الذي يعنى بتحليل الظروف التي تحدد أفعال الأفراد في المواقف الاجتماعية.¹

طرق وأدوات البحث وأساليب التحليل والتفسير المستخدمة في الدراسة:

عند الباحثان إلى الاعتماد على مجموعة من طرق وأدوات البحث الاجتماعي نريدها كما يلي:

- قام توماس بتطوير منهج السيرة الذاتية للبحث الاجتماعي التجريبي واستخدام أساليب الملاحظة الميدانية حيث أمضى 10 سنوات في جمع التقارير الشفوية والمكتوبة من المجتمع البولندي والأمريكي وقد استخدم تقارير الصحف ومحفوظات المنظمات والرسائل الشخصية والمذكرات والوثائق العامة التي تحصل عليها من خلال نشره لإعلان في الصحافة البولندية في شيكاغو (حيث قدم من 10 إلى 20 سنت لكل رسالة بريدية تم جمعها) ، كما اعتمدت الدراسة الرسائل المتبادلة بين المهاجرين وأسره.²

- اعتمدت الدراسة طريقة دراسة الحالة: حيث يعد الباحثان أول من استعمل دراسة الحالة على نحو متفرد.

- طريقه تحليل المضمون: وتمثلت في تحليل مضمون الخطابات المتبادلة بين المهاجرين وأسره.

- الطريقة المقارنة في الحصول على البيانات التي تعكس حالة الفلاحين البولنديين المهاجرين.

ملاحظة: إن المنهجية المتبعة من طرف الباحثين لم تكن شائعة إلى غاية استخدامهما لها فمنهج السيرة في السوسيولوجيا الذي سمي في البداية بالمنهج البولوني الذي ركز على روايات الحياة، وهو ما يعرف بالمنهج البيوغرافي الذي يتم استخدامه في الدراسات الاجتماعية كأحد المناهج الكيفية لفهم المجتمع في بناءه وثقافته، وفهم الفرد كمدخل لفهم الجماعة والمجتمع، والبيوغرافيا تشير إلى كتابة الحياة أو سيرة الحياة، وهي مكونة من شقين Bio: الحياة و Graphie: الكتابة، هناك سيرة حياتية غيرية يكتبها كاتب عن شخص آخر والسيرة الذاتية.

مفاهيم الدراسة:

انطلاقاً من الإطار التصوري للدراسة قام الباحثان بتحديد أهم المفاهيم الأساسية في الدراسة وهي:

- الهجرة: تم تحليل الهجرة على أنها ناتجة عن الفوضى الاجتماعية في المجتمع البولندي عندما حدث تغيير في العلاقات التقليدية بين الفلاحين وأسرهم وحدث تفكك اجتماعي على مستوى الأسرة البولندية وزاد مظهر التفكك وأصبح أكثر تطرفاً عند هجرة الفلاحين إلى الولايات المتحدة الأمريكية تاركين ورائهم وأسرهم ومجتمعهم، مما أدى بهم إلى تشكيل قيم وممارسات جديدة أثرت بدورها على السلوك الاقتصادي والحياة العامة لهم، وقد حاولوا أن يشرحوا من خلال تحليلهما للهجرة انطلاقاً من الأسرة كوحدة أساسية ضمن الإطار الثقافي للمجتمع.¹

- القيم، المواقف، والاتجاهات: يقصد بالقيم أي شيء يحمل معنى لأعضاء جماعة ما بحيث يصبح هذا المعنى موضوعاً ودافعاً يوجه نشاط هؤلاء الأعضاء²

كما تشير القيم إلى الطرائق الشعبية والأعراف والمعايير... إلخ، والمقصود بها الجوانب الثقافية التي لها صفة التقويم وهي أي معنى ينطوي على مضمون واقعي تقبله الجماعة وهي العناصر الثقافية الموضوعية للحياة الاجتماعية، أما المواقف فهي الخصائص الذاتية للأفراد، ويشير الاتجاه إلى وعي فردي تحدد الأفعال الاجتماعية للفرد حيث يقول الباحثان "أن سبب القيمة أو الاتجاه لا يمكن أن يكون الاتجاه أو القيمة وحده، ولكن مزيج بينهما"³، فهما يؤمنان بأن الفعل الاجتماعي ناتج عن قوى اجتماعية بالإضافة إلى الدوافع الداخلية للفرد.

بالإضافة إلى مفاهيم ضمنية في سياقات مختلفة للدراسة منها: التغيير الاجتماعي، الوضع، الشخصية، النمط الاجتماعي.

نتائج الدراسة:

توصلت الدراسة إلى نتائج تعكس التغيير في التنظيم الاجتماعي وقيم اتجاهات 'الفلاح البولندي' نتيجة الهجرة والدور الذي تلعبه القيم في التأثير على الاتجاهات نعرضها فيما يلي:

¹ - سليمة العمري: مرجع سابق، ص 38.

² - بلقاسم نويصر: مرجع سابق، ص 39.

³ - محمود الجوهري: علم الاجتماع التطبيقي، مرجع سابق، ص 122.

- تغير الحالات الأسرية ونسق القيم القرابية، وقيم التضامن الأسري في المجتمع البولندي تحت تأثير عوامل مرتبطة بالهجرة منها اتساع نطاق الحراك الاجتماعي، وصعوبة التكيف مع الظروف الجديدة وبروز النزعة الفردية والاتجاهات المرتبطة بالمتعة والسعي نحو النجاح والتفوق الاقتصادي لتحل محل التضامن الأسري والروح الجمعية المحافظة القديمة بالإضافة إلى التغير في العواطف الأسرية.
- تغير النظام الطبقي في المجتمع البولندي حيث شهد نمو طبقة وسطى جديدة وظهور تنظيم طبقي جديد يعتمد على الإنجاز العقلي والثروة، وتراجع الاعتماد على المحكات التقليدية القديمة في تحديد المراكز والأدوار وتسارع معدلات الحراك الاجتماعي.
- تغيير ملامح البيئة الاجتماعية البولندية.
- تغير الحياة الاقتصادية البولندية بفعل تغير الظروف العامة للحياة مثل تحسن الدخل وظهور الأعمال التجارية والصناعية.¹

حاولت هذه الدراسة التصدي لآثار هجرة الفلاحين البولنديين على التغيرات في الأنساق الاجتماعية والاقتصادية والثقافية على بطاقة المجتمع البولندي وهي دراسة رائدة في علم الاجتماع الأمريكي، اعتمدت على أدوات بحث جديدة ومنهجية مغايرة مرتبطة بالسير الذاتية للمبحوثين حيث ركزوا على الفلاحين البولنديين المهاجرين وأهم التأثيرات التي خلفوها في مجتمعاتهم الأصلية وصعوبة التكيف والاندماج في المجتمعات المستقبلية.

رابعا: تجارب هاوثورن - العلاقات الإنسانية - لجورج إلتون مايو

تمهيد:

في الفترة الممتدة بين 1930 و 1940 تغير اتجاه الإدارة نتيجة لتجارب مصانع هاوثورن بمدينة شيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكية كرد فعل على التنظيم الكلاسيكي في طريقة معالجة المشاكل وتركيزها على الجانب المادي، في حين أن هذه الدراسة كان لها موقف مغاير ينحى نحو أهمية فهم الأفراد من حيث فهم سلوكهم وتصرفاتهم وميولهم ورغباتهم واحتياجاتهم، حتى يتمكن من خلق الجو التنظيمي الذي يساعد على التفاهم والتعاون المشترك والعمل الجماعي، فكانت حركة العلاقات الإنسانية حركة تصحيحية للمفاهيم والمبادئ التي أرستها الدراسات والنظريات التقليدية فيما يتعلق بطبيعة العاملين وكيفية الإفادة من طاقاتهم وجهودهم.¹

وقد حاول إلتون مايو ومجموعة من زملائه دراسة أثر التصميم المادي لمكان العمل كالإضاءة والتهوية واستخدام الألوان على إنتاجية العاملين وقاموا بالعديد من التجارب للتحقق من هذه الفرضيات لغرض تطوير الفكر التنظيمي والتسييري من بينها تجارب هاوثورن بسبب وجود العديد من المشاكل التنظيمية والسلوكية داخل المؤسسات الصناعية في الولايات المتحدة الأمريكية كضعف الإنتاج وتمرد العمال وغيرها من المشكلات التي أثرت على المردودية الإنتاجية.

التعريف بالتون مايو (1880-1949):

هو عالم نفس وعالم اجتماع أسترالي ولد في بريطانيا سنة 1880 وتوفي سنة 1949 وهو مؤسس مدرسة العلاقات الإنسانية في الإدارة، عمل أستاذا محاضرا بجامعة كوينزلاند من 1911 إلى 1923 ثم جامعة بنسلفانيا بالولايات المتحدة الأمريكية ولكنه قضى معظم حياته المهنية بجامعة هارفرد للأعمال (1923-1947) حيث عمل كأستاذ في البحث الصناعي.

اشتهر بأبحاثه المتعددة وتجارب هاوثورن التي أجراها في ثلاثينيات القرن 20 والتي حال في البداية بحث سبل رفع الإنتاجية عبر سلسلة من التجارب كتغيير ظروف الإضاءة في ورشات العمل ليكتشف بعدها أن إنتاجية العمال لا تتعلق بالعوامل المادية بقدر ما تتعلق بعوامل اجتماعية كالصداقة والعلاقات غير الرسمية داخل محيط العمل ويمدى شعور العمال بالأهمية وارتفاع الروح المعنوية، ولا تزال مبادئه وقواعده الأساسية تستخدم بشكل متكرر اليوم في العديد من الكتب التي تقوم بشرح القيادة والإدارة والتوجيه، ومن أهم مؤلفاته المشكلات الإنسانية في حضارة صناعية والمشكلات الاجتماعية لحضارة صناعية.

الفكر السائد قبل حركة مدرسة العلاقات الإنسانية لمايو:

ومن أهمه مدخل الاقتصاد الكلاسيكي ومدخل الإدارة العلمية حيث يرى علماء الاقتصاد أن الأفراد يعملون في عزلة عن الآخرين وأنهم يعملون وفقا لمصالحهم الخاصة من أجل زيادة مداخيلهم إلى أقصى حد ممكن وأهم يعملون بطريقة رشيدة وعقلانية، فالمجتمع يتكون من حشد من الأفراد غير المنتظمين يعمل كل منهم بطريقة تضمن بقاءه ومصالحه الذاتية ويفكر تفكيراً منطقياً ويعمل ما بوسعته لخدمة أغراضه الخاصة، وفي نفس السياق تبهم دعاة الإدارة العلمية فقد حاول تايلور وزملاؤه تطبيق المناهج والطرق العلمية في العمل الصناعي ووضعوا افتراضات أن الأفراد يرتبطون بأعمالهم وكأنهم آلات صنعت خصيصاً ليغطي أكبر قدر من الكفاءة الممكنة وأنه إذا أحسن استخدام الحوافز المادية استطاع العامل أن يؤدي عمله بطريقة أكثر كفاءة، فالعامل يحفز بزيادة المكافآت المادية وهذا ما يحقق التعاون والانسجام بين العمال والإدارة إلا أن علماء النفس وعلماء النفس الاجتماعي حاولوا دراسة ظاهري التعب والملل، وأنقذ وبشدة ادعاءات تايلور وزملاؤه المتعلقة بالسلوك الإنساني.¹

مدرسة العلاقات الإنسانية (تجارب هاوثورن):

يشير مصطلح العلاقات الإنسانية إلى تفاعل العاملين في موقع العمل وكيفية التنسيق بين جهود الأفراد المختلفين وخلق جو عمل يحفزهم على الأداء الجيد والتعاون في سبيل الحصول على نتائج أفضل مما يترتب عليه إشباع رغبتهم الاقتصادية والنفسية والاجتماعية، حيث يستخدم مفهوم العلاقات الإنسانية ليشير إلى تلك العلاقات التي تنطوي على خلق جو من الثقة والاحترام المتبادل والتعاون بين الإدارة والأفراد من أجل رفع الروح المعنوية وزيادة الإنتاجية²، حيث تقوم نظرية العلاقات الإنسانية على محاولة إدماج الأفراد في موقع العمل وخلق جو يحفز على الأداء الجيد ويحقق التعاون بين العاملين من خلال الميول المشتركة وإشباع حاجاتهم الاقتصادية والسيكولوجية والاجتماعية.

لقد جاءت هذه النظرية لتهتم بالعديد من القضايا التي تم إهمالها بواسطة نظرية الإدارة العلمي التي ركزت على دراسة نظام العمل باعتباره مجموعة منسقة من الخطوات والإجراءات والعمليات التي تعمل بصورة منتظمة

ودقيقة ومحددة ورسمية من حيث الوقت أو الزمن والحركة، وتصورت أن العمال مجرد آلات تعمل وفق نظام حددته وخططته السلطات الإدارية العليا.

ملخص تجارب هاوثورن:

ظهرت عام 1927-1932 عندما دعت شركة وسترن إلكتروك (WESTERN ELECTRIC) 'مايو' وزملاءه لدراسة عدد من المتغيرات التي تؤثر على إنتاجية العمال والمصانع وتعتبر التجربة المسماة 'TEST ROOM' من أهم تجاربه وكان مضمون الدراسة هو معرفة ما إذا كانت هناك علاقة بين الظروف المادية في العمل (الإضاءة الجيدة، التدفئة، نقص في ساعات العمل وزيادة في الراحة) وتأثيرها على إنتاجية العمل.

حيث تم في بداية الأمر عزل ست (06) عاملات في غرفة خاصة تماثل تماما نفس الظروف الفيزيائية التي كانت سائدة في الشركة، ثم قام بإدخال بعض التعديلات في ظروف العمل في إطار عناصر التجربة وتم ترتيب عملهن وفق منحى معين، وعند قياس إنتاجيتهن بشكل مستمر وجد أن هناك تحسن في الإنتاجية ولكن دون وجود علاقة بينها وبين ظروف العمل المادية.

ثم قام بتقسيم العمال إلى مجموعتين، المجموعة الأولى تعمل في ظروف جد حسنة والمجموعة الثانية تعمل في نفس ظروف العمل السابقة فكانت النتائج مفاجئة جدا ليست فقط في المجموعة الأولى ولكن حتى في المجموعة الثانية التي تجاوزت إنتاجيتها المجموعة الأولى، وقد فسر 'التون مايو' وفريقه بأن هناك عوامل تساهم في تحسين الأداء وزيادة الإنتاجية على غرار الحوافز المادية والاقتصادية وأهمها:

- العمل كفريق لديه اتجاهات إيجابية نحو العمل وقيمه حيث يتبادل العاملون فيما بينهم ويتقاسمون علاقات اجتماعية طيبة ومرحة مما يؤدي إلى أداء العمل بنشاط ومعنويات مرتفعة.
- شعور العاملين بأهميتهم من خلال تزويدهم بالمعلومات وسماع آرائهم باستمرار (الاهتمام الذي حظيت به العاملات خلال التجربة)

وعموما تتكون تجارب هاوثورن من مجموعة دراسات مستقلة لكل منها منهاجا ونتائج مختلفة أهمها:

- 1) تجارب الإضاءة: عرض 'التون مايو' مجموعة من العمال إلى شدة إضاءات متباينة مع ملاحظة تأثيرها على الإنتاجية وتوصل إلى أن الإنتاجية زادت في المجموعتين التجريبية والضابطة بنفس القدر تقريبا، وفي

المرحلة الثانية تم تعريض المجموعتين التجريبية والضابطة لإضاءة صناعية وتم تخفيض مستوى الإضاءة بالتدرج في حجرة المجموعة التجريبية وتبين مرة أخرى أن كفاية المجموعتين التجريبية والضابطة تزيد بنفس المعدل تقريبا ولم يبدأ الإنتاج في الانخفاض إلا بعد أن قام الباحثون في تخفيض الإضاءة في المجموعة التجريبية إلى مستوى ضوء القمر تقريبا بحث فقد العمال القدرة على رؤية المواد التي يعملون بها.

ويتضح من هذه التجارب أن الزيادة والنقصان في الإضاءة لا تتماشى مع الزيادة والنقصان في الإنتاجية بل أن الاهتمام الشخصي الذي خطو به أثناء البرنامج كان له تأثير في تغيير حالة اللامبالاة وتقريب المسافة الاجتماعية وعلاقتهم مع الإدارة وتوصيلهم إلى حالة دفعتهم إلى العمل الجاد مما أدى إلى زيادة الإنتاج بغض النظر عن مقدار التحسن في ظروف العمل المادية التي أحدثتها التجارب.¹

(2) برنامج المقابلات: الغرض منه التعرف على العلاقة بين الإشراف والروح المعنوية للأفراد حيث أجريت خلال التجارب حوالي 20 ألف مقابلة بين عامي 1928 و 1930 لتحديد مواقف العمال اتجاه الشركة والإشراف وخطط التأمين والترقية والأجور. في البداية كان الاستجواب مباشرا ثم أصبحت المقابلة غير موجهة دامت 90 دقيقة بدل 30 دقيقة وتحصلوا على 80 ألف عبارة تم تحليلها فيما بعد لتقدم رؤى قيمة حول السلوك الإنساني في الشركة، وقد تفاوتت الإجابات بين (شكاوى شخصية، شكاوى موضوعية وشكاوى غير منطقية)، وأبرز البرنامج مجموعة من النتائج أهمها أن الاتجاه نحو الإشراف يؤثر على الروح المعنوية للعمال وأن سلوك العمال يتأثر بسلوك المجموعة.

(3) حجرة ملاحظة شبكة الأسلاك: أجريت هذه التجارب لمعرفة تأثير المجموعات الصغيرة على الأفراد، حيث تم تشكيل مجموعة من 14 عاملا من الذكور في مجموعة عمل صغيرة ووضعوها تحت الملاحظة في حجرة مستقلة ليستمروا في أداء نفس العمل الذي كانوا يقومون به وكان عملهم توصيل أسلاك خطوط لوحة مفاتيح التليفونات على النحو التالي: 09 عمال أسلاك، 03 لحامين، و02 من المفتشين تحت إشراف ملاحظ، استمرت هذه التجربة من نوفمبر 1931 إلى ماي 1932 وقد تم تحديد أجر كل ساعة لكل عامل على أساس متوسط إنتاج كل عامل كما تدفع المكافئة على أساس الجهد الجماعي، وقد وضع نظام حوافز الأجر معيار قدره 7200 توصيلة غير أن العامل وقف عند 6600 توصيلة في اليوم وكان من المتوقع أن يمارس العمال ذو الكفاءة العالية الضغط على العمال الأقل كفاءة لزيادة الإنتاج والاستفادة من خطة الحوافز الجماعية إلا أن الخطة لم تنجح وأن العمال وضعوا معيارهم الخاص بالإنتاج واستطاعت الجماعة أو

المجموعة العمالية تقييد تحديد إنتاج كل فرد وفرضت معايير محددة عليهم تجعل الإنتاج يتوقف عند المستوى الذي ترغب فيه الجماعة من خلال مختلف طرق الضغط الاجتماعي¹، وقد أظهرت هذه التجارب بوضوح أن الدافع وراء عدم الزيادة في الإنتاج هو كون العمال كانوا مقيدين بمعايير الجماعة وخوفهم من الإقصاء الاجتماعي إذا ما تمت مخالفتها.

(4) دراسة التتابع (خط التجميع المناوب): لم تكن تجارب الإضاءة مرضية بسبب عدم التحكم في المتغيرات الأخرى التي تؤثر على أداء العمال كان الهدف من دراسة غرفة اختبار التجميع هو دراسة تأثير ساعات العمل أو الإرهاق والراحة على المخرجات.

بالنسبة إلى هذه التجربة كانت مجموعة الاختبار عبارة عن مجموعة من الموظفين الذين عملوا كمجمعين للترحيل ثم اختيار مجموعة التتابع كمهمة لأنها بسيطة ومتكررة ولا تحتاج إلى آلات وتسمح بالدقة أثناء قياس الإنتاج تألفت المجموعة التجريبية من 05 فتيات كنّ في العمل من سنوات وقد طلب منهن اختيار المزيد من البنات كزملاء في العمل بعد موافقتهن على أن يصبحن جزءاً من دراسة الاختبار، بدأت التجارب فيما بعد بإدخال تغييرات عديدة في التسلسل مع مدة كل تغيير تتراوح من 04 إلى 12 أسبوعاً، ارتبط مراقب بالفتيات للإشراف على عملهن قبل إدخال كل تغيير، ثم استشارة الفتيات ومنحنهن الفرصة للتعبير عن وجهة نظرهن ومخاوفهن إلى المشرف.²

وقد أفرزت التجربة في الأخير مجموعة من النتائج تكشف أن الإنتاجية لم ترتفع بسبب التغيرات الإيجابية في العوامل المادية ولكن بسبب التغير في مواقف الفتيات نحو العمل ومجموعة العمل الخاصة بهن.

وعموماً فإن دراسات الهاوثورن تتكون من مجموعة من سلسلة من التجارب أو الدراسات المستقلة ولكل منها مناهجها ونتائجها، إلا أنها توصلت إلى نقاط مهمة أهمها:

- زيادة الإنتاجية لا يخضع فقط للطريقة التي يصمم بها العمل أو السلوك الاقتصادي الذي يكافئ به الفرد وإنما يتأثر بعوامل اجتماعية ونفسية معينة فالخوافر المعنوية أثر يفوق الخوافر المادية.

¹ -.

² - المرجع السابق، ص 101.

- سلوك العمال بالمؤسسة يتحدد باندماجهم في المجموعة وتكوين فرق عمل متجانسة فالمصنع ليس وحدة اقتصادية فحسب بل وحدة اجتماعية أيضا والعاملون يقومون بتطوير روابط نفسية مشتركة خاصة بهم.¹

- التنظيم غير الرسمي يتشكل تلقائيا في المؤسسة أو المصنع وهو يفوق في الأثر والأهمية التنظيم الرسمي، ففي لكل مؤسسة قادة غير رسميون يتمتعون بخصائص تؤثر في سلوك العمال ولا تقل قوة أدوارهم عن القادة الرسميين.

- الإدارة هي المسؤولة عن الوصول إلى الأهداف من خلال كيفية التنسيق بين جهود العمال ومحاولة إيجاد جو من الثقة والفهم المشترك بين القادة والأفراد، كما يؤثر أسلوب الإشراف على سلوك العمال في العمل والإنتاجية (المشرف الذي يهتم بالمشاكل النفسية والاجتماعية للعمال هو الأقدر على تحريك وتحفيز المرؤوسين).

وتوصلت دراسات 'إلتون مايو' إلى ضرورة المشاركة العمالية في المؤسسة الصناعية في اتخاذ القرارات من المستوى الأدنى إلى الأعلى وعلى كل مستويات التنظيم بالمؤسسة سواء كان إشراكا في وضع الخطط واتخاذ القرارات أو في تنفيذها واقتراح الحل الأمثل لها أو فتح النقاش في المواضيع العالقة.²

آثار النظرية:

- ظهرت لأول مرة إدارة مهمة في المصنع تسمى إدارة الأفراد أو العلاقات الإنسانية.

- بدأت الإدارات تعترف بحق العمال في الحصول على عطل سنوية والتخفيض من ساعات العمل تدريجيا.

- بعد الاعتراف بحق العمال في الرعاية الصحية والنفسية والاجتماعية.

- بدأ تدريب القادة والرؤساء والمشرفون على مراعاة أصول العلاقات الإنسانية والمعاملة الحسنة للعمال حتى ترتفع روحهم المعنوية وتزيد قابليتهم للتعاون.

إلا أنها بالغت في الاهتمام بالجوانب النفسية والاجتماعية على حساب العمل الرسمي، وقد توصل الباحثون أن هذه الطريقة لم تحقق دائما النتائج المرغوب فيها ولم تؤدي بالضرورة إلى إقامة علاقات سليمة بين العمال وبين

¹ -.

² -.

الإدارة والعمال قوامها التعامل والتوافق والانسجام كونها ركزت على عنصر واحد من عناصر التنظيم وهو العنصر البشري، غير أن الواقع يفرض اهتماما مماثلا للظروف الأخرى المحيطة بالمؤسسة من الداخل ومن الخارج.

خامسا: دراسة 'ميدل تاون': ل: روبرت وهلين ليند

تمهيد:

يهتم علماء الاجتماع بدراسة المشكلات الاجتماعية والأنماط المثيرة للاهتمام باستخدام أساليب البحث العلمية والمنهجية لإجراء البحوث والحصول على البيانات، وقد يعتمدون على الدراسات الإثنوغرافية والبيوغرافية التي تقدم إطارا تفسيريا للبيئة الاجتماعية أو الدراسة ككل ومثل هذا النوع من البحوث يتعين على الباحث توخي الحذر فهناك أوقات يجب فيها عدم الكشف عن هوية الباحث فلن يتجول باحث مثلا في حي مليء بالجريمة

لينادي عن وجود أفراد عصابات في الجوار وعلى الباحثين أن يختاروا الأساليب البحثية التي تناسب موضوعات دراستهم وتناسب المناهج العامة للبحث.

وسوف نحاول في هذه المحاضرة أن نتناول دراسة 'ميدلتاون' التي تعنى بالمجتمعات الحضرية انطلاقاً من الأنثروبولوجيا والتي ركزت على مفهوم ومضمون الثقافة لتغطية جميع جوانب الحياة الاجتماعية لمجتمع المدينة والأدوار الاقتصادية والاجتماعية لأفرادها خلال الفترات الممتدة من 1924 إلى 1925 لتسفر عن جملة من النتائج الأولية ليلاحظ الباحثان (روبرت و هيلين) التغيرات التي حدثت في المدينة بعد 10 سنوات من الدراسة الأولى.

نبذة عن حياة روبرت وهيلين ليند:¹

- روبرت ليند: ولد في 1892/9/26 وهو عالم اجتماع أمريكي تلقى تعليمه ليصبح كاهناً في الكنيسة البروتستانتية وهو أستاذ في جامعة كولومبيا بنيويورك، اشتهر بإجراء أول دراسات ميدل تاون من مونسي إنديانا حصل على درجة البكالوريوس في الآداب من جامعة برينستون سنة 1914. وفي الأعوام 1919 و 1920، 1921 و 1933 حضر دروساً في المدرسة الجديدة للبحوث الاجتماعية (وهي جامعة بحثية خاصة في مدينة نيويورك تأسست عام 1919 تضم مختلف التخصصات بما في ذلك العلوم الاجتماعية)، من سبتمبر 1920 إلى 1923 التحق ليند بمدرسة الاتحاد اللاهوتية بمدينة نيويورك وحصل على درجة البكالوريوس في اللاهوت عام 1923، وفي عام 1924 انتقل روبرت وهيلين ليند إلى مونسي إنديانا (وهي مدينة في مقاطعة ديلاوير إنديانا تقع في شرق وسط إنديانا) لبدء دراسة ميدل تاون لمدة 18 شهر وفي عام 1926 أصبح ليند مديراً مساعداً لقسم البحوث التربوية في الكومنويلث ثم انضم إلى مجلس أبحاث العلوم الاجتماعية عام 1927 كمشرف أبحاث ومساعد رئيس مجلس الإدارة أمضاً أربع سنوات أخرى من 1928 إلى 1931 كسكرتير بالمجلس وفي عام 1931 عين أستاذاً لعلم الاجتماع في جامعة كولومبيا وهو المنصب الذي شغله حتى 1960 وتوفي عام 1970.

- هيلين ليند: ولدت في 1896/3/17 وتوفيت في 1982/01/30 عالمة اجتماع وفيلسوفة أمريكية اشتهرت بدراسات ميدلتاون مع زوجها روبرت تحصلت على درجة البكالوريوس عام 1919 من كلية

ويلسلي ثم درجة الماجستير من جامعة كولومبيا عام 1922 ثم درجة الدكتوراه عام 1944 من نفس الجامعة في التاريخ والفلسفة توفيت عام 1982.

موضوع الدراسة:

في أوائل العشرينيات قام روبرت وزوجته هيلين بإجراء مسح عن الأنشطة والممارسات الدينية في مجتمع محلي أمريكي نمطي (دراسة الميدل تاون) وهي من أهم الدراسات الأنثروبولوجية الحضرية التي هدفت إلى دراسة الحياة الاجتماعية لشريحة اجتماعية في مدينة صغيرة في أمريكا وإعطاء تصور سوسيولوجي عن المجتمع المحلي (كل الدراسات السابقة كانت تركز على الثقافات الأخرى أو المجموعات الأقلية مثل العصابات والمهاجرين والفقراء لعقود ولم يتم دراسة الأمريكي العادي).

وقد قام الزوجان بعمل إثنوغرافي غير مسبوق لتطبيق الأساليب المنهجية لدراسة دور الدين وتأثير التصنيع والتحضر على الحياة الاجتماعية الأمريكية.

مجالات الدراسة:

- المجال الزمني:

✓ المرحلة الأولى من 1924 إلى 1925، ميدل تاون 1.

✓ المرحلة الثانية بعد 10 سنوات من الدراسة الأولى عادا إلى نفس المدينة ليلاحظا التغيرات التي حدثت في المدينة الصغيرة خاصة بعد أزمة الثلاثينيات والكساد الاقتصادي وأصدرا الميدل تاون بصيغة أخرى بعد عام 1937.

- المجال المكاني: مدينة مونسي بإنديانا بالولايات المتحدة الأمريكية.

- المجال البشري: قام العالمان بدراسة مسحية لمدينة مونسي وهي مدينة صناعية صغيرة يبلغ عدد سكانها حوالي 40,000 نسمة وقد استعير عن اسم هذه المدينة باسم مستعار 'ميدل تاون'.

هدف الدراسة:

فهم المجتمعات الحضرية ومختلف الحياة الاجتماعية.

كان الهدف الأول في البداية يركز على دراسة دور الدين في المدن الأمريكية، لكن بعد جمع الملاحظات الأولية أدرك العالم أن تأثير التصنيع والتحضر (الانتقال من الزراعة إلى حرف أخرى ومن القرية إلى المدينة) هو الموضوع الأكثر صلة بهذه المجموعة الاجتماعية محل الدراسة، فأرادوا أن يقدموا دراسة في الثقافة الأمريكية الحديثة والتوصيفات الاجتماعية الواقعية بهدف إقناع النخبة بالحاجة إلى إصلاحات في المجتمع، وقد وضع تصورا سوسيولوجيا عن المجتمع المحلي من خلال دراسة مظاهر الحياة الاجتماعية المنظمة تحت ستة عناوين وهي:¹

- نوع العمل (كسب القوت).
- حياة الأسرة (بناء وتأثير المنزل).
- تنشئة الصغار.
- استخدام وقت الفراغ.
- نشاط المجتمع المحلي (الانخراط والمشاركة في أنشطة المجتمع المحلي).
- المشاركة في الممارسات الدينية.

وتنقسم كل فئة من هذه الفئات إلى أقسام أخرى، فعلى سبيل المثال تشمل مناقشة أنشطة المجتمع المحلي وسائل الإدارة الحكومية، المحافظة على الصحة ورعاية المعوقين، الحصول على المعلومات، عوامل تضامن الجماعة وعوامل إعاقه هذا التضامن.

منهج الدراسة:

اعتمدت الدراسة على المنهج الإثنوغرافي ويقصد به تلك الدراسة الميدانية العلمية للظواهر الاجتماعية عن طريق اتصال الباحث الأنثروبولوجي بموضوع البحث اتصالا مباشرا ليعيش فيه بين الجماعات المراد دراستها والانخراط العميق للباحث علنا أو خفية في حياة الناس لفترة زمنية طويلة، يراقب ما يحدث ويسمع ما يقال ويجمع ما أمكن من البيانات حول قضايا محورية (يعتمد على الملاحظة بالمشاركة)، بالإضافة إلى المنهج المقارن الذي اعتمد عليه في المقارنة بين ميدل تاون المعاصرة وجيلا مضى 1890 والمنهج التاريخي، بالإضافة إلى ذلك قام بفحص البيانات الوثائقية وجمع الإحصاءات وإجراء المقابلات المقننة والعرضية والاستعانة بالاستبيانات ومن بين الوثائق : تقارير التعداد، سجلات المدينة والإقليم، ملفات المحاكم وتقارير الولاية وكتبها السنوية، سجلات

المدارس، محاضر الاجتماعات، الصحف، اليوميات الشخصية، سجل الاحداث المحلية، دليل المدينة، كراسة
الغرف التجارية.¹

بالإضافة إلى الملاحظة بالمشاركة اعتمدت الدراسة على المقابلة الموجهة والتلقائية والاستبيانات، وقد أنحيا هذا
العمل المنهجي باستخدام جملة من المعطيات الإحصائية التي أتيحت لهما وقد امتزجت الأدوات البحثية بين
البيانات الرسمية والانطباعات غير الرسمية ومن الوثائق المكتوبة نجد تقارير التعداد، سجلات المدينة والإقليم وملفات
المحاكم وسجلات المدارس وتقارير الولاية وكتبها السنوية، والصحف، المحاضر، اليوميات الشخصية، سجلات
القصاصات، الأحداث اليومية، حوليات المدرسة الثانوية، دليل المدينة والخرائط وكراسة الغرفة التجارية²، كما شملت
دراسة على عينتين؛ عينة من أسر الطبقات العاملة وعينة من أسر طبقة رجال الأعمال.

مفاهيم الدراسة:

إن كل العلوم تندرج من مرحلة معرفية إلى أخرى لتقدم لنا جملة من الأفكار والتصورات الجديدة والحزم
المعرفية والعلمية التي تضاف إلى المعارف السابقة، وعلى غرار العلوم الأخرى تتصف العلوم الاجتماعية بالتراكمية
وقد ترك لنا رواد علم الاجتماع مفاهيم وتصورات نظرية وإمبيريقية حول مختلف القضايا والمشكلات الاجتماعية
وفي عدة مجالات وعلى رأسها مجال البحث الحضري الذي حظي بمحاولات جادة على المستوى المفاهيمي
والمنهجي وتزايد أهمية الدراسات المتخصصة وكانت دراسة المدينة هي المجال التخصصي البارز في أعمال مدرسة
شيكاغو فيما مضى من الزمن (وخاصه في الحقبة 1920 – 1935) لتحصل فيما بعد نهضة معرفية ومنهجية في
عقد الخمسينيات والستينيات وما بعدها لتركز على مختلف النشاطات والاهتمامات والعمليات الاجتماعية التي
تتلازم مع الحياة الحضرية في المدينة وبما يطور عمليات البحث الحضري.

ومن أهم الدراسات التي اهتمت بالمدينة وبجوانب الحياة الاجتماعية بها دراسة 'ميدلتاون' التي اعتمدت على
مجموعة من المفاهيم أهمها:

1.-

2.-

- المجتمع المحلي¹: وهو كل جماعة من الأفراد يقيم في منطقة محددة قد تكون عشيرة أو قبيلة، قرية أو مدينة بلدة أو أحياء دولة أو أمة تجمعهم رابطة الإقامة على بقعة محددة لها حدودها وخصائصها الاجتماعية وكذا وجود رابطة روحية أو أخلاقية بين هؤلاء الأفراد وكذا قيم وأصول مشتركة.

- النظم الاجتماعية: يطلقوا عليها أحيانا اسم المؤسسات الاجتماعية ونعني بها مجموعة التعاليم والضوابط التي تحدد العلاقات والممارسات السلوكية التي يكتننها الأفراد في المنظمات الأساسية التي يتكون منها البناء الاجتماعي كالمنظمات الدينية والاقتصادية والأسرية والسياسية والعسكرية، والنظم الاجتماعية هي حلقة الوصل بين الأدوار الوظيفية التي يشغلها الأفراد والبناء الاجتماعي.

- البناء الاجتماعي: وهو يتضمن مختلف أنواع الجماعات والعلاقات والنظم الأساسية السائدة في المجتمع والتي تربط بين أفراد المجتمع تشكل كلا متماسكا ويمكن القول بأن البناء الاجتماعي هو عبارة عن مجموعة النظم الاجتماعية داخل المحيط البيئي لأي مجتمع وهو مفهوم يرتبط بالسلوك الإنساني وبمختلف الظواهر التي تتأثر به.

- الكساد: وهو شكل من أشكال الركود غير العادية وهو مصطلح اقتصادي يطلق على أي انخفاض ملحوظ وواسع النطاق في النشاط الاقتصادي فهو حالة انكماش في النشاطات الاقتصادية وتباطؤها وارتفاع غير طبيعي في البطالة وانخفاض في الموجودات المصرفية بسبب الأزمات المالية وانخفاض الإنتاج والاستثمار وضعف القدرة الشرائية، حالات إفلاس كبرى لدى الشركات، حالات تخلف عن سد الديون، انخفاض كبير في التجارة، تقلب قيمة العملة، ومن أشهرها كساد 1930.

- الرفاهية الاقتصادية: حالة وسط من العيش المريح والرغد وهي جزء من الرفاهية الاجتماعية العامة للمجتمع بحيث تخلوا فيه المشقة وتسود الوفرة المادية ويتحقق الاكتفاء الاقتصادي.

صناعة ميدل تاون:

عام 1924 قام الزوجان روبرت وهيلين ليند بعمل إثنوغرافي غير مسبوق بتطبيق الأساليب الاجتماعية للسوسيولوجيا الحضرية لدراسة مدينة أمريكية بغية اكتشاف ما فعله الناس "العاديون" في الولايات المتحدة الأمريكية، أو اعتقدوه، باختيار مونسي بولاية إنديانا كموضوع لهم عاشوا فيها مدة 18 شهرا قاموا خلالها بفتح

مكتب في مبنى محلي لجمع البيانات، وخلال تلك الفترة شارك ليند وزوجته ومعاونوهما قدر الإمكان في جميع جوانب الحياة بالمتجمع المحلي، (وكان علماء الإثنوغرافيا من قبل يدرسون ويفحصون ثقافات الأخرى أو المجموعات التي تعتبر أقلية أو خارجية مثل العصابات والمهاجرين والفقراء لكن لم يدرس أحد ما يسمى بالأمريكي العادي). انقسمت الدراسة إلى مرحلتين:

- المرحلة الأولى من 1924 إلى 1925: قارنوا فيها بين مونسي عام 1890 وبين مونسي التي لاحظوها عام 1924 واعتمد التقرير النهائي للبحث على مزيج بين البيانات الرسمية والانطباعات غير الرسمية والمعلومات المجمعة باستخدام الملاحظة بالمشاركة كما قاما بفحص البيانات الوثائقية وجمع الإحصاءات وإجراء المقابلات والاستعانة بالاستبيانات ومن بين الوثائق المكتوبة نجد تقارير التعداد، سجلات المدينة والإقليم، وملفات المحاكم وسجلات المدارس وتقارير الولاية وكتبها السنوية والصحف ومحاضر الاجتماعات واليوميات الشخصية وسجل القصصات والأحداث المحلية ودليل المدينة والخرائط وكراسة الغرفة التجارية وحوليات المدرسة الثانوية. كما شمل برنامج المقابلات محادثات عارضة ومقابلات مخططة مع أبرز الإخباريين، ومسح لعينة من أسر الطبقة العاملة، وعينة أخرى من أسر طبقة رجال الأعمال¹. وقد وجدوا أن معظم البالغين في مونسي قد نشأوا في المزارع ولكنهم يعيشون الآن في منازل داخل المدينة، قاموا بتقسيم المدينة إلى مجموعات: فئة رجال الأعمال وفئة الطبقة العاملة.

✓ طبقة رجال الأعمال التي تحصل على دخلها من العمل مع الناس.

✓ وطبقة العمال التي تحصل على معظم دخلها من العمل مع الأشياء وقد استخدموا الأدوات لإنشاء أشياء ملموسة.

وتختلف هاتان الطبقتان من حيث فرص الحياة ونظام المعيشة اليومي والعلاقات الأسرية والمعتقدات الدينية والسياسية وتتشابه عادات أفراد الطبقة العاملة في بعض الجوانب مع عادات أفراد طبقة رجال الأعمال من الجيل الماضي، وتظهر السمات الثقافية الجديدة في طبقة رجال الأعمال أولاً ثم تنتقل ببطء إلى طبقة العمال كما كان الصغار أكثر استجابة للتغير الاجتماعي، وكانت النساء أكثر استجابة له من الرجال خاصة في طبقة رجال الأعمال ولاحظ ليند وزوجته أنه بالرغم من اختلاف الحياة الاجتماعية والأهداف إلا أن

الإنتاج الضخم يوفر لكلا الفئتين نفس وسائل الراحة مثل العائلات الثرية، إذ أصبحت الطبقة العاملة قادرة على امتلاك أجهزة الراديو والسيارات والغسالات والهواتف والثلاجات...إلخ.

وقد توصل الباحثان إلى أن هناك نوع من التدرج في التغير الاجتماعي بالنسبة للنظم الاجتماعية الستة على النحو التالي:

(1) كانا التغير أكثر سرعة في النشاط الاقتصادي.

(2) وقت الفراغ.

(3) التعليم.

(4) أنشطة المجتمع المحلي.

(5) الأنماط الأسرية.

(6) الانخراط في الممارسات الدينية.

- المرحلة الثانية: سنة 1935 : في عام 1935 كانت ميدل تاون قد بدأت تصحح وضعها الناتج عن انهيار الصناعة والبطالة المتفشية والخسارة في الممتلكات والمدخرات التي حدثت خلال خمس السنوات الماضية (من عام 1930 إلى عام 1935) وتعطل التقدم الاقتصادي للمجتمع المحلي تعطلا كاملا وأصبح حوالي ربع الأسر يعيش على المساعدات العامة وانخفضت عدد الزيجات والولادات وتوقف تشييد المباني الجديدة وشهد نظام العمل تحولا بفعل القواعد الفيدرالية وانتشار الحركات النقابية بين العمال والصراعات الكامنة في مجتمع الميديل تاون كما أدى الكساد إلى تباطؤ سرعة التغير الاجتماعي ونمو الوعي في عقول السكان بنمو التعارض بين الواقع والرموز التي يستخدمونها في تفسير هذا الواقع وهذا ما جعل ليند وزوجته يعيدان النظر في وجهة نظرهما السابقة حيث عادا إلى نفس المدينة ليلاحظا التغيرات المصاحبة لأزمة الثلاثينيات والكساد الاقتصادي في المدينة الصغيرة فأصدرا الميديل تاون بصيغة أخرى بعد عام 1937.

حيث ظهر متغير جديد لم يكن سابقا وهو متغير القوة إذ أن توزيع القوة والتأثير داخل المجتمع المحلي لم يكن متوازنا فالسلطة الاجتماعية والسياسية في المدينة تركزت في أيدي أسر معينة ذات النفوذ التي كانت تمتلك الصناعة المحلية الرئيسية وكانت تسيطر على الحياة الاقتصادية وعلى العمالة المحلية في المدينة وعلى المجتمع المحلي برمته من خلال علاقتها الاستراتيجية مع البنوك الرئيسية والمكاتب القانونية ومجالس التعليم والجمعيات الخيرية والكنائس والصحافة والأحزاب السياسية.

وقد طغى الصراع وطفى على السطح وتفاجأ الباحثان بملامح بغیضة في ميدل تاون تغاضيا عنها أو صورها بدرجة أقل من الواقع عام 1925 نذكر على سبیل المثال:

✓ بالنسبة لمشكلة الدعارة أوضحت الدراسة الأولى عدم وجودها أو انحصارها (وجود بيتين أو ثلاثة لممارسة الدعارة في الخفاء) وبعد 10 سنوات اكتشف ليند وزوجته أنهما كانا واهمين وأن ميدل تاون عام 1925 كانت تمثل مركزا للدعارة لإقليم كبير وأنهما فشلا في ملاحظة وجود حي البغاء بكامله إلى جانب حي الأعمال.¹

✓ على نحو مشابه أدرك ليند وزوجته أن نسبة كبيرة من السكان كانوا يعيشون في مساكن متهدمة لا توجد بها مياه نقية أو تدفئة كافية وأنهم كانوا يعانون الفقر والحرمان والافتقار إلى ضرورات الحياة.

✓ اكتشف الباحثان أن ميدل تاون سنة 1925 كانت تعج بالمشكلات الاجتماعية والانحرافات السلوكية مثل إدمان المسكرات والكحوليات، التعصب المتأصل ضد الزواج والذي كان يمثل مرضا مستوطنا في الأفراد.

✓ كما أن الصحافة المحلية كانت تتعرض للمناورات والمؤثرات غير القويمة.

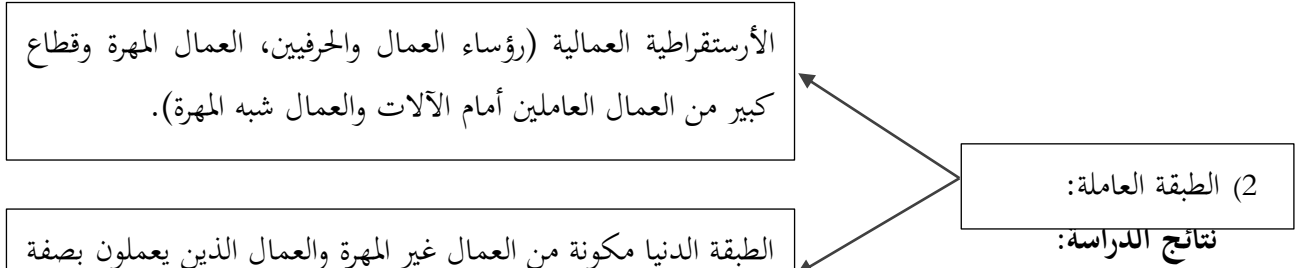
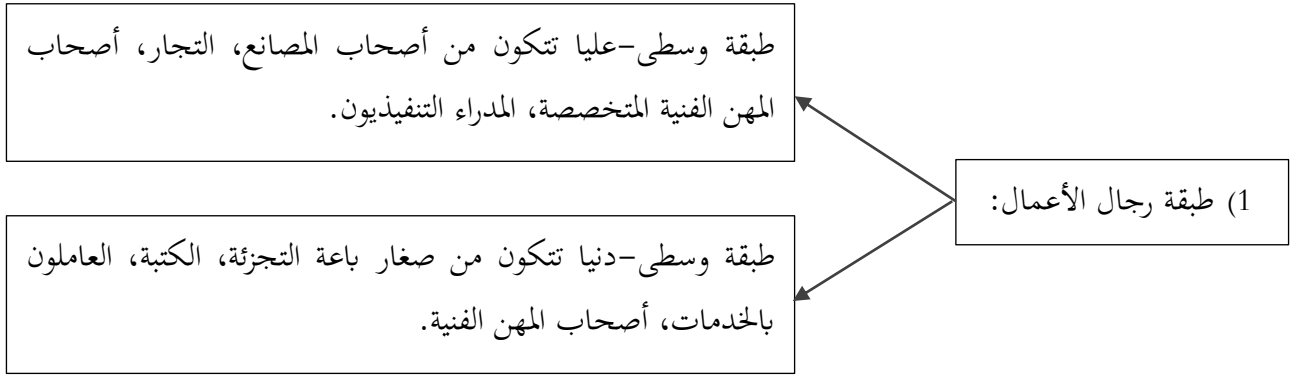
✓ وأن النهر كان ملوثا بدرجة خطيرة.

✓ وأهم تغيير في وجهه نظرهم السابقة كان حول البناء الطبقي حيث كشف وجود طبقة عليا ناشئة تتكون من رجال الصناعة الأثرياء وأصحاب المديرين المحليين للشركات الوطنية وقلة ثرية تابعة لهذه الجماعات، ويقسمان طبقة رجال الأعمال إلى طبقة وسطى-عليا مؤلفة من أصحاب المصانع والتجار وأصحاب المهن الفنية المتخصصة والمديرين التنفيذيين، وطبقة وسطى-دنيا تتألف من صغار باعة التجزئة، والعاملين بالخدمات وأصحاب المهن الفنية، ويمكن تلخيص التقسيم الطبقي الجديد كالآتي:²

التقسيم الطبقي ميدل تاون-2- شكل 1

1-.

2-.



- كان كتاب 'ميدل تاون' أول طبعات في السنة التي ظهر فيها وحضي بمناسبات حامية في أرجاء الولايات المتحدة الأمريكية خاصة في ميدل تاون وأصبح مؤلفا هذا الكتاب مشهورين بين عشية وضحاها، وقد كشف الكتاب عن قوة أسلوب الحياة الأمريكية.

- تأثير المجتمع المحلي على مسألة توزيع السلطة وتركزها في أيدي أسر معينة كانت تهيمن على الحياة الاقتصادية في شقها المحلي مما أدى إلى انقسام المجتمع المحلي إلى طبقات من رجال الأعمال والعمال وكان للأسر المملوكة للصناعة المحلية نفوذا وهيمنة كبيرة على المجتمع المحلي وعلى مختلف العلاقات مع باقي المؤسسات الأخرى.

- كشفت الدراسة عن قوة أسلوب الحياة الأمريكية وقدرته على تحقيق التوافق رغم الاختلافات الثقافية الموجودة فيه (هذه النتيجة ارتبطت فقط بالدراسة الأولى قبل حدود التغير في ميدل تاون)، إذ وجد الباحثان بأن هناك تشابه كبير بين عادات أفراد الطبقة العاملة وطبقة رجال الأعمال من الجيل الماضي.

- العلاقات المتصلة بكسب القوت هي المحددة ببناء النظم الاجتماعية الخمسة (05) الأخرى بالإضافة إلى القيم والمعتقدات السائدة.¹
- اختلاف بين الطبقات الاجتماعية من حيث المعاش اليومي وفرص الحياة وكذلك العلاقات الأسرية والدينية والسياسية.
- ظهور السمات الثقافية الجديدة في طبقة رجال الأعمال أولاً لتنتقل فيما بعد ببطء إلى طبقة العمال.
- تأثير التغيير بشكل متباين على طبقة رجال الأعمال وطبقة العمال، كما أن الجيل الجديد أكثر تقبلاً للتغيير من الجيل الذي سبقه وأن النساء أكثر تقبلاً من الرجال خاصة في طبقة رجال الأعمال.
- تباين في سرعة التغير الاجتماعي للنظم الاجتماعية الستة (06) (نوع العمل، حياة الأسرة، تربية الطفل، الدين، نشاط المجتمع المحلي، نشاطات وقت الفراغ). حيث كانت تغير سريعاً في النشاط الاقتصادي ثم قضاء الوقت الفراغ للتعليم، أنشطة المجتمع المحلي، الأنماط الأسرية والدين.
- فقدان القدرة على تحقيق التوازن بين التغيرات الحاصلة في مختلف جوانب الحياة الاجتماعية وبين العادات النظامية الراسخة خاصة في طبقة العمال.
- أدى ظهور النقابات والقواعد الفيدرالية إلى تحول في نظام العمل واشتد الصراع بين العمال في القيم داخل مجتمع الميدل تاون مثل الفردية والمسؤولية الاجتماعية.
- كما أدى الكساد إلى تباطؤ سرعة التغير الاجتماعي ونمو الوعي في عقول السكان بنمو التعارض بين الواقع والرموز التي يستخدمونها في تفسير هذا الواقع.
- وجود طبقة عليا ناشئة تتكون من رجال الصناعة والأثرياء وأصحاب البنوك والمديرين المحليين للشركات الوطنية وقلّة ثرية تابعة لهذه المجموعات أي تم تقسيم طبقة رجال الأعمال إلى طبقتين طبقة وسطى-عليا مؤلفة من أصحاب المصانع، التجار، أصحاب المهن الفنية المتخصصة والمديرين المتخصصين، وطبقة وسطى-دنيا تتألف من صغار باعة التجزئة والعاملين بالخدمات وأصحاب المهن الفنية، كما يقسمان الطبقة العاملة إلى الأرستقراطية العاملة تتكون من رؤساء العمال والحرفيين والعمال المهرة والعمال شبه المهرة وقطاع كبير من

العمال أمام الآلات، والطبقة الدنيا المكونة من العمال غير المهرة الذين يعملون بصفة عرضية أو مؤقتة وأكثرهم من البيض الفقراء القادمين من المناطق الجبلية.¹

لقد حاول روبرت وهيلين ليند تقديم إضافات منهجية للسوسيولوجيا الحضرية بالاستعانة بالأنثروبولوجيا محاولين فهم وتفسير مجموعة من الظواهر الاجتماعية التي تحدث داخل مجتمع محلي وقد وقع اختيارهما على مدينة صغيرة في الولايات المتحدة الأمريكية (مونسي) وقد جاءت هذه الدراسة على مرحلتين: ميدل تاون 1 في مرحلة الرفاهية الاقتصادية، وميدل تاون 2 بعد الكساد، وبين الازدهار والكساد الاقتصادي حدث تغير في كل النواحي الاجتماعية في المدينة مع الاختلاف في درجات تأثيره بين طبقات المجتمع.

سادسا: دراسة يانكي سيتي¹ 'ويد وارنر'

تمهيد:

كانت دراسة 'يانكي سيتي' امتدادا لتجارب الهاوثون في مدرسة العلاقات الإنسانية التي كان 'لويد وارنر' قد شارك فيها لفترة قصيرة ثم حوّل اهتمامه من المجتمعات البدائية إلى المجتمعات الحديثة، وشكل هو الآخر فريقا بحثيا بجامعة شيكاغو بغرض دراسة العلاقة بين المصنع والبيئة الخارجية المحيطة به، وقد كشف البحث الأولي وجود بعض المعوقات لدراسة مدينة كبيرة ليتحول البحث لدراسة مجتمع محلي صناعي صغير يمكن فيه دراسة مشكلات عمال المصنع في إطار السياق الاجتماعي الطلي الذي يعيشون فيه، فوقع الاختيار على مجتمع تتميز فيه الأنماط الاجتماعية بالاستقرار النسبي ومقاومة التغير، فكان ذلك في مدينة ساحلية صغيرة لها تاريخ طويل ومتواصل ألا وهي 'نيو بيرى بورت NEW BURY PORT' في ماساتشوستس Massachusetts.

التعريف بلويد وارنر (1898-1970):

ولد لويد وارنر بكاليفورنيا في أكتوبر 1898 وهو عالم أنثروبولوجي وعالم اجتماع ينتمي إلى الطبقة المتوسطة، درس في جامعة هارفرد في قسم الأنثروبولوجيا وكلية إدارة الأعمال وقد أصبح عضوا في مجموعة علماء علم النفس الاجتماعي، وقم وارنر بتدريس علم الإنسان وعلم الاجتماع والأخلاق الاجتماعية في جامعة هارفرد من 1929

¹ - المرجع السابق، ص 138.

إلى 1935 قام فيها بالعديد من الأعمال الميدانية، كما عمل أستاذا مشاركا (1935-1941) وأستاذا لعلم الاجتماع بجامعة شيكاغو من 1941 إلى 1959 وبعد ذلك أستاذا بالأبحاث الاجتماعية في جامعة ولاية ميشيغان.

طبق وارنر تقنيات الأنثروبولوجيا في دراسة مجتمعات السكان الأصليين الصغيرة إلى المعاصرة في المدن الصناعية وكان رائدا في دراسة الطبقات الاجتماعية الأمريكية وتضمنت منشوراته الواسعة سلسلة 'يانكي سيتي' وتوفي 23 ماي 1970.¹

المجال الجغرافي والزمني والبشري للدراسة:

(1) المجال الجغرافي: تمت الدراسة في مدينة نيو إنجلاند وبالضبط مدينة 'نيو بيري بورت' NEW BURY PORT في ماساتشوستس MASSACHUSETTS بالولايات المتحدة الأمريكية، وهي مدينة ساحلية صغيرة وقع عليها الاختيار من طرف وارنر الذي بحث عن مجتمع تتميز فيه الأنماط الاجتماعية بنوع من الاستقرار ومقاومة التغيير.

(2) المجال الزمني: بدأ العمل الميداني سنة 1931 إلى سنة 1935 بينما صدر العمل في خمسة مجلدات ضخمة في 1941-1959.

(3) المجال البشري: اختار وارنر النوع المسحي إذ اعتمد على المسح الشامل لجميع سكان مدينة نيو بيري بورت والذي كان يبلغ آنذاك 18 ألف نسمة.

أدوات ومنهج جمع وتحليل المعطيات:

اعتمد وارنر في جمع المعطيات على المقابلات، الملاحظة (خاصة الملاحظة بالمشاركة)، الوثائق الشخصية من البلدية، الكنائس، المصانع، اليوميات والمفكرات، وقد سعى إلى جمع معلومات غزيرة فاستعان بالوثائق العامة، الصحف والعد الإحصائي وتاريخ الحالة وتتمثل المنهجية المتبعة في ترتيب البيانات التي جمعت في 'يانكي سيتي' حسب أسماء الأفراد ويتكون الجزء الرئيسي من التحليل من تعاقب مراتب الأفراد وعلاقاتهم باستخدام نظام الملفات الذي يجمع المعلومات بشكل فردي عن كل ساكن تقريبا من سكان المدينة.²

1.-

2.-

واعتمد بتحليل المعطيات على المنهج الكيفي وتحليل المضمون لتحليل تلك المقابلات والوثائق التي تم جمعها، وقد أفرز ذلك التحليل خمسة مواضيع مهمة والتي جسدت تلك المجلدات ومضمونها:

- النمط العام للحياة الاجتماعية.
- تحليل دقيق لنسق المكانة.
- التطور المفاجئ والهام لصناعة الأحذية.
- الرموز السياسية والتاريخية والدينية ليانكي سيتي.
- أوضاع ثمان جماعات عرقية في المجتمع المحلي (الإيرلنديون، الكنديون، الفرنسيون، اليهود، الإيطاليون، الأرمن، اليونانيون، الروس، البولنديون).

وقد ساعده في إعداد هذه المجلدات مجموعة من المشاركين والمساعدین الأكفاء قدر عددهم بـ 30.¹

أهمية وأهداف الدراسة:

تعتبر دراسات يانكي سيتي من أهم الدراسات الأنثروبولوجية التي بحثت مشكلة المجتمعات الصناعية وأهم التغيرات التي طرأت على الأنماط الاجتماعية في إطار السياق الاجتماعي واتجهت الدراسة إلى الظروف الاجتماعية الخارجية المحيطة بالتنظيم كمشكلات المجتمع المحلي والتدرج الاجتماعي مما مكن من استعارة المفاهيم السوسيولوجية لتحليل البناء الاجتماعي للمصنع كالدور والمكانة والثقافة من أجل فهم التنظيم وطابع الحياة الاجتماعية فيه... ففي دراسة وارنر عن اليانكي سيتي حاول أن يفسر ظاهرة اتحاد عمال الأحذية بالرجوع إلى التغيرات العديدة التي شهدتها كل من بناء المصنع والمجتمع المحلي²، وتعتبر دراسة وارنر عن النسق الاجتماعي الحديث بمثابة إسهام رئيسي في التطور التاريخي والفكري لحركة العلاقات الإنسانية، وقد حاول دراسة العلاقة بين الصناعة والمجتمع المحلي وتفسير الظواهر الاجتماعية في المجتمع الصناعي بوضعها في السياق المجتمعي الأكثر شمولاً (باعتبار المنظمة نسقاً مفتوحاً).

وقد أسهم مشروع يانكي سيتي في تغيير وجهة نظر الأمريكيين عن مجتمعهم على أمل إيجاد الحلول العلمية للمشكلات الاجتماعية والصناعية القائمة والعلاقات المتبادلة بين التنظيمات الاجتماعية السائدة في الصناعة والمدينة والمجتمع العام، وتعتبر الدراسة السوسيولوجية التي قام بها وارنر حول الطبقات الاجتماعية في المجتمع

¹ -

² -.

الأمريكي ذات آثار بالغة الأهمية ومحاولة علمية رائدة في التطور المعرفي لمفهوم التدرج الطبقي (التباين الطبقي) مركزا على محور المكانة الاجتماعية وبعض المحددات المعرفية والمنهجية التي أفضت إلى أن مجتمع يانكي سيتي هو مجتمع تعددي ينطوي على نسق طبقي متدرج قوامه ست طبقات.

دراسة يانكي سيتي:

تتمثل أهم الاختلافات المنهجية بين ميدل تاون ويانكي سيتي في معالجة الجماعات في ميد تاون على أنها تجمعات في حين تم ترتيب ملف كل فرد في اليانكي سيتي وقد أسهم مشروع يانكي سيتي على غرار دراسات ميدل تاون في انتشار وجهة نظر الأمريكيين عن مجتمعهم واكتشاف وجود نسق واضح من الطبقات الاجتماعية يؤثر في حياة السكان من جميع الجوانب، وقد تم ترتيب البيانات التي جمعت وتحليلها وتعقب روابط الأفراد وعلاقاتهم.

ويتألف النظام الطبقي من ست طبقات لكل طبقة اسم يستند إلى أحياء المدينة (مثل سكان شارع هيل، ريفر) لتستخدم كتعبيرات مهذبة عن التصنيفات الطبقية بلغة وارنر، كما أوضح وارنر أن هذا النسق الطبقي الموجود في نيو بيري بورت موجود في مجتمعات أخرى دون الحاجة للبحث في ذلك.¹

نتائج الدراسة: من أهم النتائج المتوصل إليها في هذه الدراسة :

- التمايز الطبقي للمجتمع المحلي قوامه ست طبقات أساسية هي في جوهرها جماعات موروثة وهي:

(1) الطبقة العليا العليا The upper upper class: وهم يمثلون الطبقة الأرستقراطية العريقة في المدينة بحكم المولد والثروة والتي وفد أسلافها إلى المنطقة قبل اندلاع الحرب الثورية الأمريكية وحققوا ثروات ضخمة من اشتغالهم بالأعمال البحرية والصناعات الفخمة العلاقة، أما أسلوب حياة هذه الطبقة. فقوامه هو الحرص على سعة العائلة والزواج من داخل الطبقة والتأكيد على المسؤولية الاجتماعية والحفاظ على تقاليد الأسلاف

والميل إلى حياة الترف (مباريات البولو، اللواتم الرسمية الضخمة، حلقات الرقص... الخ) كما تتميز بقدر محسوس من الاستقلال النسبي من حيث الثروة.¹

(2) الطبقة العليا الدنيا The Lower upper class: وهي تحاول أن تشبه الطبقة السابقة في معيشتها إلا أنها تختلف عنها، فأسرها ليست قديمة وأسلوب حياتها مكتسب حديثا (الأغنياء المحدثين) وبوجه عام فهي تمثل طبقة فرعية مكونتها ليست عائلات عريقة وإنما أعضاؤها من الأثرياء الجدد الذين يتمتعون بدخول كبيرة ويمتلكون سيارات فاخرة وقيمون في مساكن ضخمة ويحاولون تقليد أسلوب حياة الطبقة العليا لكنهم رغم ذلك يفتقدون الجاذبية الاجتماعية التي من شأنها الوفاء بذلك.

(3) الطبقة الوسطى العليا The upper middle class: وتتكون من رجال الأعمال الحرة وأصحاب المهن الفنية المتخصصة الذين يتمتعون بقدر من الاستقلالية، وهم أيضا خريجو الجامعات وينتمون إلى الهيئات الرسمية وغير الرسمية، لديهم قدر من الثروة يمكنهم العيش في حياة الترف بدرجة أقل من الدجات السابقة.

(4) الطبقة الوسطى الدنيا The lower middle class: تتكون من صغار التجار والياقات الزرقاء، والعمال وأصحاب الأجور المرتفعة والموظفين الأقل دخلا من الطبقة السابقة.

(5) الطبقة الدنيا العليا The upper lower class: وتتكون من عمال المصانع وباعة المتاجر وموزعي السلع (وهم يمثلون 40% من قوة العمل في أمريكا) وتتميز بمستوى معيشي متدني والاحتقار إلى أدنى الحقوق الاجتماعية.²

(6) الطبقة الدنيا الدنيا The lower lower class: تشمل هذه الطبقة المطرودون أو المنبوذون أو من يشتغلون مهن غير شريفة وهي تقع في أسفل سلم التدرج الطبقي وهي تشمل بوجه عام أولئك الذين يشتغلون بصفة غير منتظمة (أعمال يومية أو موسمية) وهم يعيشون عادة في المناطق المتخلفة وسلوكهم الاجتماعي لا يلقي قبولا من الآخرين.

- اليانكيون هم الأشخاص المنحدرون من المستوطنين (الإنجليز الأول) في نيو إنجلاند، وهم يشكلون من أصل محلي حوالي نصف السكان وهم ممثلون في جميع الطبقات الست وخاصة الطبقة العليا، وتعيش هذه الطبقات الست في حدود مكانتها الاجتماعية دون وجود صراع فيما بينهم.

- لا يعتقد النسق الطبقي في يانكي سيتي على رأس المال فقط والوصول إلى تحسين الأوضاع من خلال فرص الكسب المختلفة بدليل أن هناك أسر تنتمي إلى الطبقة العليا ودخلها متواضع مقارنة بالطبقات الأدنى منها (الطبقة الوسطى) إذ تحتاج عملية الانتقال والتحول من طبقة إلى أخرى صعوداً أو نزولاً إلى فترات زمنية طويلة ومناسبة.

- العضوية المهمة في يانكي سيتي هي عضوية الأسرة، الزمرة، الرابطة والجماعة الاقتصادية ولكل منها نمطها الطبقي الخاص بها، فأعضاء نفس الأسرة عادة ما ينتمون إلى نفس الطبقة وأعضاء الزمرة تنتمي إلى طبقة أو طبقتين متقاربتين، وأعضاء الرابطة تنتمي إلى تشكيلة من الطبقات تبعا لطبيعتها، أما أعضاء الجماعة الاقتصادية فيتفاوتون تفاوتاً حاداً من الناحية الطبقيّة.¹

- يحتاج الصعود في السلم الاجتماعي إلى قبول أفراد الطبقة العليا بصعود وانضمام ذلك الفرد إليهم، وتكون كل طبقة مكثفية وكبيرة بدرجة تمنع أي فرد أو زمرة أن تحتكر الوصول إليها.

- عكست دراسة يانكي سيتي مجتمعا مغايراً لما كان سائداً ومتوقعا من وجود للمساواة والديمقراطية في المجتمع، فالتنوع المحلي هو أساس تجانس النظم في المجتمع المحلي.

- كانت الإضرابات العمالية تبوء بالفشل في البداية نظراً لاختيار وإقامة إدارة المصنع والعمال في مجتمع محلي واحد مما ساهم في انسجام العلاقة بين النقابة وإدارة المصنع والتوصل إلى حلول توفيقية مع العمال إلا أن الإضرابات في فترة لاحقة استطاعت تحطيم وتجاوز مظاهر الصداقة والعلاقات غير الرسمية بين المرداء والعمال وذلك لامتداد الصناعة إلى غاية نيويورك واستبدال المرداء بآخرين ليسوا من السكان المحليين.²

وكما هو الحال في 'ميدل تاون' كان الاكتشاف المبكر الهام في 'يانكي سيتي' هو وجود نسق واضح من الطبقات الاجتماعية يؤثر في حياة السكان وقد أدت نتائج هذا المشروع إلى انتشار وجهة نظر الأمريكيين مغايرة عن مجتمعهم.

ويظهر أعمال 'وارنر' الذي حاول دراسة العلاقة بين الصناعة والمجتمع المحلي وتفسير الظواهر الاجتماعية في المجتمع الصناعي بوضعها في السياق الاجتماعي والمجتمعي، وقد أمكن استعارة المفاهيم السوسيولوجية لتحليل

1.-

2.-

البناء الاجتماعي للمصنع كالدور والمكانة والثقافة كما يتوقف فهمنا للتنظيم وطبيعة الحياة الاجتماعية على إدراكنا للإطار الاجتماعي الذي يحيط به والقوى التي تربطه بالمجتمع.¹

سابعاً: مجتمع في الشارع (مجتمع النواصي) لويليام فوت وايت

تمهيد:

اهتم وليام فوت وايت بدراسة المجتمعات المصغرة مستنداً على الأنثروبولوجيا وقد اكتشف -وهو خريج جامعة هارفرد- مجتمعا غريب آخر قريب منه عندما قام بدراسة منطقة إيطالية حضرية متخلفة (كورنفيل في بوسطن بين 1937 و 1940) وما يمكن ملاحظته من خلال تفحص هذه الدراسة ودراسة يانكي سيتي هو وجود علاقة بينهما إذ تعلم وايت أساليب العمل الميداني من كونراد أرينسبرج وأليوت شابل اللذين اكتسبا هذه المعرفة في يانكي سيتي، كما استفاد من نصائح وارنر في إعداد تقريره.

نبذة عن حياة وليام فوت وايت (1914-2000): هو عالم اجتماع وعالم إنسان ذو جنسية أمريكية تدرّب على البحث العلمي في جامعة شيكاغو كلية سوارثمور اشتهر بالدراسات الأنثروبولوجية ورائد في الملاحظة بالمشاركة عاش لمدة أربع سنوات في المجتمع الإيطالي وقد عرف وايت بذكائه وإبداعاته وبأنه مراقب مشارك بامتياز ولديه حساسية للتفاصيل اليومية الصغيرة والدقيقة وقد اتجه وايت إلى الاهتمام بدراسة وضع الفقراء والحياة اليومية في الأحياء الفقيرة في المناطق الحضرية الأمريكية، بعد تخرجه من جامعة هارفرد التحق ببرنامج الدكتوراه بجامعة شيكاغو حصل على الدكتوراه سنة 1943، انتقل وايت إلى جامعة أوكلاهوما عام 1942 لتدريس علم الاجتماع ثم انضم إلى جامعة كورنيل وقضى بقية حياته المهنية في التدريس حتى تقاعده في عام 1979.

إشكالية الدراسة: كيف يمكن فهم العلاقة الموجودة بين الجمعيات التطوعية في كورنفيل والمقامرة المنظمة والسياسية.

مجالات الدراسة: أجريت الدراسة في منطقة إيطالية حضرية تدعى كورنفيل في بوسطن وذلك في الفترة ما بين 1937 و 1940.

وقد تمثل مجتمع البحث في جميع سكان كورنفيل والبالغ عددهم عشرون ألف نسمة وقت إجراء الدراسة وتم التركيز في موضوع بحثه على العلاقة التبادلية بين الجمعيات التطوعية للشباب في كورنفيل والمقاومة المنظمة والسياسية (عصابة النواصي يطلق عليها نورتونز NORTONS وجمعية النادي الإيطالي المحلي Italian Community Club) مشيراً إشارات طفيفة إلى بعض النظم الاجتماعية المتواجدة بها كالأُسرة، الكنيسة، القطاع الرسمي من الاقتصاد المحلي.¹

منهج الدراسة والتقنية المستعملة: المنهج الرئيسي المستخدم في الدراسة هو المنهج الإثنوغرافي الذي يعتبر من أهم مناهج الأنثروبولوجيا كما تعد الملاحظة بالمشاركة هي التقنية الرئيسية في البحث باعتبارها الأسلوب الرئيسي في البحث الإثنوغرافي.

أجزاء الدراسة:

أ. القسم الأول: قام وايت في هذا الجزء بعملية وصفية لتطور الجمعيتين وهما عصابة النواصي (نورتونز) وجمعية النادي الإيطالي المحلي حيث أن أعضاء النورتونز هم من صبية النواصي الذين لا تتعدى طموحاتهم المجتمع المحلي، أما أعضاء النادي الإيطالي المحلي فهم جامعيون يتطلعون إلى تحسين وضعهم والحصول على فرصتهم في المجتمع الأكبر.

ب. القسم الثاني: حاول وايت بدراسة البناء الاجتماعي لابتزاز الأموال في كورنفيل إذ كان المبتزون يسيطرون على لعبة الأرقام ويتحكمون بها ويحرصون على مهادنة الشرطة وتوطيد العلاقة مع البناء السياسي الذي يشبع الولاء المحلي والاحتياجات المحلية.

ويعتبر كتاب مجتمع النواصي من أهم الكتب التي ألفها وليم فوت وله طابع درامي ملحوظ نظراً لمشاركة المؤلف الوجدانية لمجتمع البحث محل الدراسة حيث يشير وايت بنفسه في موضع من الكتاب أنه تحول تقريباً من ملاحظ غير مشارك إلى مشارك غير ملاحظ خاصة وأنه كان يشعر بقربه من النورتونز منه إلى النادي الإيطالي المحلي وقضية النورتونز تشبه إلى حد كبير قصة صديقه دوك DOC قائد النورتونز الذي يعتبر معاونه وأول

إخباري له في أيام مجده الأولى ثم ضياع هيئته كقائد في حالة البطالة الدائمة التي عانى منها مما أدى إلى عدم قدرته على الوفاء بالتزامات القيادة ودفعته في النهاية إلى قطع صلته مع زمرة.¹

أما قصة النادي الإيطالي المحلي فهي إلى حد كبير تشبه قصة قائده شيك موريللي CHIK MORELLI وهو انتهازي بلا مبادئ على دراية جيدة بالبناء الاجتماعي لكورنفيل وهي قصة التنافر بين أسود باريتو وThعالبه في صورة مصغرة وكانت عواطف وايت كلها مع الأسود قليلة الحظ وكان يشعر بقرب النورتونز منه إلى النادي الإيطالي المحلي وكان النورتونز يحافظون على الفضائل الأصلية للمجتمع المحيط بهم وفي المقابل كان أعضاء النادي الإيطالي المحلي الذين تأثروا بدراساتهم الجامعية وبالأخصائيين الاجتماعيين وغيرهم من مؤسسات المجتمع الأكبر تناسوا إلتزاماتهم حيال بعضهم البعض حتى سباقهم من أجل الحراك الصاعد.²

القسم الثاني من التقرير عبارة عن دراسة للبناء الاجتماعي لابتزاز الأموال في كورنفيل حيث كان المبتزون يسيطرون على لعبة الأرقام ويتحكمون بها ويحدثنا وايت في أحد فصول كتابه عن كيفية خضوع نادي اجتماعي ورياضي صغير لأحد المبتزين وكيفية قيام هذا النادي بدوره في انتخابات المدينة ويصف وايت المشاهد بأسلوب واضح ودقيق واستخدامه المستمر للاقتباس المباشر في سرد الأحداث يعطي القارئ إحساسا بالمشاركة الشخصية.

وهناك ملمح درامي آخر في كتاب مجتمع النواصي ففي الوقت الذي قام فيه وايت بدراسة منطقة كورنفيل مع نهاية الكساد العظيم وكان مهتما بادئ الأمر اهتماما ظاهريا بمختلف المشكلات التي تعانيها المنطقة الحضرية المتخلفة كالبطالة والرشاوى والمرتبات الثابتة التي تدفع لرجال الشرطة، والفساد السياسي، والخدع الانتخابية والفرص المحدودة إلا أن تعاطفه ومشاركته الوجدانية مع مجتمع البحث قاده إلى وصف كورنفيل بأنها مكان يخلو من العنف والحقْد والمعاناة.

كما ميز وايت في كل تدرج طبقي في كورنفيل نسقا من ثلاث مستويات يتألف من صغار القوم وسطائهم وكبارهم وصبية النواصي هم صغار القوم أما كبار القوم فهم المشرفون والساسة أما قادة عصابات النواصي فهم الوسطاء الذين يصلون بينهما ويمتد هذا النمط إلى التدرج الهرمي فوق الطبيعي (حيث أن العباد شأنهم في ذلك صغار القوم يتخذون من القديسين وسطاء ليشفعوا لهم عند علية القوم وقد اتضح أن النظام الطبقي الخاص بهذه المنطقة نظام طبقي دقيق وهو يضم أكثر من هذه الفئات المتدرجة العامة إذ أن كل رابطة من الرابطتين اللتين قام

¹ - المرجع السابق، ص 31.

² -.

وايت بملاحظتهما لها نظامها الطبقي الدقيق الخاص بها واستطاع وايت أن يبين اعتماد المكانة على مجموعة من الالتزامات داخل الجماعة، ويكون القائد هو النقطة المحورية لبنائها ومثلها أمام العالم الخارجي وتحديث التغيرات في القيادة عن طريق حدوث تحول في العلاقات بين من يتربعون على قمة البناء وليس بحركة تصاعدية ممن يقبعون في الأسفل.¹

لعبة البولينغ تعد أحد الأنشطة السياسية التي تؤثر على الأفراد وخاصة في زمرة دوك DOC حيث يتوقف مستوى الطرد في لعبها على مكانته في الجماعة وقد افترض وايت في البداية أن مهارة الفرد في لعب وممارسة البولينغ تضيف إلى مكانته في الجماعة ولكنه انتهى إلى عكس ذلك فمكانة عضو الجماعة هي التي تحدد مهاراته في لعبة البولينغ حيث قال من خلال تجربته الذاتية في اللعب "عندما رميت الكرة أحسست أن الجماعة هي التي قامت برميها" لأنه لمس تأثير الجماعة عليه مما أعطاه قدرا أكبر من الثقة.

تحتاج دراسة مجتمع النواصي إلى التساؤل وإعادة التفكير خاصة وأن الجانب الذاتي قد تدخل نوعا من في الدراسة كونه تعاطف مع مجتمع البحث بحكم احتكاكه بهم مما جعله ينفي وجود الفساد في المنطقة ورغم ذلك تبقى هذه الدراسة من الدراسات الرائدة في علم الاجتماع التي تجعل القارئ يحس بالمشاركة الوجدانية والفعلية وكأنه يعيش ذلك الوقت مما أضفى صبغة جديدة لهذا العلم، وقد ساهمت في تطوير فهمنا للمجتمعات المحلية الثقافية الشعبية.

ثامنا: ثقافة الفقر: لويس أوسكار

لقد اهتمت العديد من الدراسات بظاهرة الفقر باعتبارها من أهم المشكلات الاجتماعية والمجتمعية التي تهدد أمن واستقرار وحياة الشعوب في محاولة منها إيجاد مفاهيم وأسباب لتفسير تلك الظاهرة خاصة وأن ظاهرة الفقر مركبة تجمع بين أبعاد موضوعية كالدخل والمهنة والطبقة وأخرى ذاتية كأسلوب الحياة والاستهلاك، الإنفاق والوعي الثقافي ومنها دراسة 'لويس أوسكار'.

نبذة عن حياة لويس أوسكار (1914-1970):

عالم اجتماع أنثروبولوجي أمريكي ولد يوم 1914/12/25 وتوفي في 1970/12/16، درس في جامعة كولومبيا كان عالما أنثروبولوجيا وأستاذا جامعا في جامعة إلينوي في إربانا ثم في جامعة واشنطن في سانت لويس حصل على جائزة أنسفيلد عام 1967 وجائزة الكتاب الوطني في العلوم والفلسفة والدين، اشتهر بتصويره الحي لحياة سكان الأحياء الفقيرة، قم أوسكار بعملية تسجيل لخبرات وتجارب الأسر المكسيكية وأسر بورتوريكو والتي أطلق عليها ثقافة الفقر من أشهر كتبه وأكثرها مبيعا كتاب 'لافيدا' الصادر عام 1966 وقد اعتمد في مادتها على مقابلات مطولة ورواية معلومات من إخباريه الذي نجح في أن يجعل منهم أصدقاء مقربون.

إشكالية الدراسة:

ما معنى الفقر؟ وهل يشكل القراء ثقافة فيما بينهم تسمح لهم بتحقيق التفاعل الاجتماعي وتحقيق التكيف مع وضعياتهم الحالية وما هي مصادر ثقافة الفقر وكيف تعمل العوامل الثقافية على إنتاج الفقر.

فرضية الدراسة:

يتقاسم الفقراء فيما بينهم مجموعة من المعتقدات والأنماط السلوكية المتنقلة عبر التنشئة الاجتماعية بغرض التكيف مع وضعياتهم الحالية.

مجالات الدراسة:

لقياس ثقافة الفقراء اختار لويس أوسكار سان جوان في بورتوريكو والمكسيك ونيويورك ميدان لدراساته وتم اختيار خمس أسر فقيرة في بداية الأمر. أجرى الدراسة على الأحياء المتخلفة في مكسيكو سيتي التي تعرف بفيكيندادييس (vecindades) ثم على الجالية المهاجرة من أبناء بورتوريكو الذين يعيشون في مدينة نيويورك الأمريكية.

لقد قام العالم الأنثروبولوجي لويس أوسكار في دراسته حول ثقافة الفقر بملاحظة خمس أسر فقيرة وقام بدراسة إحدى الأسر الخمس دراسة مركزة وتتبعية عبر الزمن (دراسة عن أطفال سانخير)، أم الثانية فكان تركيزه على المهاجرين البورتوريكيون الذين استقروا في مدينة نيويورك الأمريكية ومدى تأقلمهم مع حياة المهجر والمجتمع الجديد، امتدت الدراسة من عام 1955 إلى عام 1966 حيث استخلص كتاب "أطفال سانخير" الذي صدر عام 1961 وكتاب "لافيدا" الصادر عام 1966، وقد نشرت هذه الدراسة (ثقافة الفقر) عام 1970 في كتاب مقالات أنثروبولوجية.¹

منهج وتقنية الدراسة:

يرى لويس أوسكار أن هذا النوع من الدراسات يتطلب تحويرا في أساليب البحث التقليدية ووحدات جديدة للدراسة وتقديم البيانات والنتائج بالطريقة والصور التي يفهمها القارئ الغير مختص، وقد جاءت هذه الدراسة لتركز على الأسرة أكثر من دراسة المجتمع والفرد واختار اليوم الواحد كوحدة للدراسة وهو يربب ذلك باعتبار أن اليوم يعبر عن أسلوب حياة الأسرة بصورة منتظمة تسمح باستمرار الملاحظة المباشرة وإجراء مقارنة بين الأسر الخمس خاصة من حيث البيانات الكمية والكيفية.²

بحيث عمد لويس أوسكار إلى دراسة المجتمع المحلي عن طريق دراسة الأسرة الواحدة والتركيز على جوانبها المختلفة مثل الحياة الاقتصادية والاجتماعية والدينية وغيرها كما لجأ إلى أسلوب تواريخ الحياة لكل فرد من الأسرة. اختار إحدى المشكلات التي تواجه الأسرة ودرس كيفية استجابتها لها ليتعرف بذلك على العوامل السيكوديناميكية التي تتحكم في حياة الأفراد والأسر.

¹ - رايح سعدان: الحياة الاجتماعية في الفضاءات العمرانية الجديدة، المنطقة الحضرية "البوني" عناية نموذجاً، رسالة ماجستير، قسم علم الاجتماع، 2006/205.

² - حسن مجذ: ثقافة الفقر، المركز العربي للنشر والتوزيع، الإسكندرية، 1981، ص 61.

وأكثر التقنيات استخداما في الدراسة الحالية مرتبطة بالملاحظة التفصيلية ليوم كامل في حياة كل أسرة من الأسر الخمس.

نستنتج من ذلك أن لويس أوسكار اعتمد في دراسته على المنهج السوسيوأنثروبولوجي الذي يجمع بين أساليب وأدوات المنهجين السوسولوجي والأنثروبولوجي، اعتمد على المنهج الإثنويوغرافي (وصف الثقافات وحياة الشعوب عن طريق الملاحظة بالمشاركة في الوضع الطبيعي، والاعتماد على السيرة الحياتية والذاتية التي تحكي ذاكرة فرد أو جماعة اجتماعية لها خصوصيتها الثقافية بطريقة سردية روائية). كما اعتمد على المنهج الوصفي، منهج دراسة الحالة، المنهج المقارن، المنهج التاريخي.

واعتمد على الملاحظة بالمشاركة والمقابلة السردية للتعرف على ما يشعر به الشخص الفقير مختارا كما ذكرنا اليوم الكامل كوحدة للدراسة، ثم أجرى مقارنة بين الأسر الخمس خاصة من حيث البيانات الكمية كالوقت المستهلك في إعداد الطعام وفي المناقشات بين الزوجين وبينهم وبين الأطفال وغير ذلك، بالإضافة إلى الجوانب الكيفية للعلاقات العائلية ومن ثمة تجمع بين الجانب العلمي والإنساني في الأنثروبولوجيا (اختار يوما عاديا لا تتخلله أحداثا طارئة كولادة أو احتفال بأحد الأعياد أو غير ذلك)، وكانت العلاقات الحميمة التي تربط الباحث بمجتمع بحثه تتيح استمرار الحياة العائلية بصورتها العادية خلال وجوده، وفي هذا الصدد يقول لويس أوسكار "لقد أمضيت مئات الساعات معهم في منازلهم أشاركهم طعامهم ورقصاتهم واستمعت إلى أحاديثهم وتعرفت منهم على سير حياتهم، ولم ييخلوا علينا بوقتهم وقبلوا بروح طيبة إجراء اختبارات بقع الحبر والمقابلات المركزة".¹

هدف وأهمية الدراسة:

من أهم الإضافات الأنثروبولوجية في هذا المجال التي أضفت لنا مفهوما علميا جديدا كمفهوم الثقافة والمفاهيم الفرعية وثيقة الصلة نجدها في عدد من كتابات علماء الاجتماع مثل ثقافة الفقر، ثقافة البطالة، ثقافة العنف، ثقافة الأحياء الفقيرة، ثقافة الاستهلاك...إلخ.

وقد أراد أوسكار تشخيص الفقر والصفات المرافقة له باعتباره ثقافة وطريقة حياة تنتقل من جيل إلى آخر حسب مسارات العائلة.

مفاهيم الدراسة:

مفهوم ثقافة الفقر: يعد لويس أوسكار أول من استخدم ثقافة الفقر في ستينات القرن الماضي في مؤلفاته وبالتحديد في دراسته المعنونة "الأسر الخمس" عام 1959 ثم دراسته "أطفال سانخير" سنة 1961، وأخيرا دراسته المعنونة "لافيدا" عام 1966.

يرى لويس أوسكار أن ثقافة الفقر توجد في دول العالم الثالث والدول التي لا تزال في مراحلها الأولى نحو التصنيع، وقد ميز بين الفقر وثقافة الفقر وحاول أن يفهم الفقر وما صاحبه من سمات ثقافية¹، وقد وضع جوانب إيجابية لثقافة الفقر وأكد أنها تساعد الفقير على التكيف مع الظروف الاقتصادية لتمكن من الاستمرار في الحياة، فهو ينظر للفقير ليس كحالة اقتصادية وإنما كثقافة وأسلوب ينمو ويتكيف في نفوس الفقراء.

بين لويس أوسكار كيف تعمل العوامل الثقافية على إنتاج الفقر حيث يتلقى الأفراد هذه الثقافة عبر التنشئة الاجتماعية انطلاقا من الأسرة والوسط الذي تربو فيه المتسم بقلة الموارد، الذي يكرس معتقدات وعادات تبعث على اليأس والتبعية وضعف الطموح وعدم تقدير المعرفة، وخاصة إذا كانت هذه الأوساط مقترنة بالجريمة والمخدرات والفوضى والجهل، حيث تترسخ في الأفراد القيم العدوانية والانحراف ويحرمون من المعرفة اللازمة لتحسين وضعهم، يقول أوسكار "إن الناس الذين يعيشون في كنف الفقر تنطبع سماتهم وسلوكهم وشعورهم بقيمتهم داخل المجتمع، إذ يتعدى الأمر مسألة الحرمان إلى الجريمة كالإدمان، فقدان القدرة على الحراك الاجتماعي فيدرك الأطفال مبكرا أنه لا معنى للطموح أو التطلع لحياة أفضل، ويستعيزون عن ذلك بالاستسلام والتواكل والرضا بأوضاع الفقر". وهكذا يتشرب الأفراد هذه المعتقدات والقيم والعادات من خلال تنشئتهم الاجتماعية التي تلقوها في أوساطهم الفقيرة ليعلموها بدورهم إلى أطفالهم جيلا عن جيل فيعيدون بذلك إنتاج الفقر وكأنها دوامة لامتناهية طالما لم يغيروا تلك الثقافة أو الوسط الذي عاشوا فيه بالحصول على تعليم جيد أو الهجرة إلى بيئة أكثر رفاهية لاكتساب عادات وقيم أكثر طموحا.

الخلفية التاريخية والمحيط الاجتماعي: يقدم لويس أوسكار عرضا سريعا للتاريخ الحديث للمكسيك والتحول التي طرأت على المجتمع في جوانبه المختلفة منذ عام 1910 إلى غاية السنوات الأخيرة ليعطي خلفية عن الهوة

¹ - طالب عبد الرضا قبطان: ثقافة الفقراء وآليات التكيف، رسالة دكتوراه، قسم علم الاجتماع، جامعة المنصورة، 2013، ص9.

الاجتماعية والاقتصادية بين الطبقات الغنية والطبقات الفقيرة وعن التباين بين أحياء المدينة الجميلة التي تغري السياح وتتوفر على كامل ضرورات ومرافق الحياة ووسائل الرفاه الاجتماعي والاقتصادي، والأحياء الفقيرة المحرومة من ضروريات الحياة.

كما يقدم صورة عن المحيط الاجتماعي لكل أسرة من الأسر الخمس:

- فأسرة مارتينيز: تعيش في قرية تبعد ستين ميلا عن العاصمة وتعاني من الاقتصاد الزراعي المتخلف.
- وأسرة جوميز: رحلت من القرية إلى المدينة المكسيك لتعيش في أحد المناطق الهامشية الفقيرة.
- وأسرة غوتيريز: التي تعد من أفقر الأسر الخمس.
- وأسرة سانشيز: فإنها أحسن حالا لأن الأب يعمل عملا إضافيا في تربية الدواجن مما ساعده على بناء منزل في إحدى المناطق الفقيرة.
- وأسرة كاسترو: والتي تمكنت من إحراز ثروة كبيرة بعد حالة الفقر وتغير أنماط حياتها التقليدية وتقليد الأنماط الحديثة.¹

وقد اختار لويس أوسكار الأسلوب الروائي في عرض الأحداث فيصور حياة الأسر كما يصور الأديب شخصياته ويدخل التفاصيل ضمن سياق الأحداث حتى يصور لنا ببراعة حياة أفراد الأسرة واستجاباتهم السلوكية وحياتهم الفكرية والوجدانية.

نتائج الدراسة:

- ميل الفقراء إلى العزلة وعدم المشاركة في الحياة الاجتماعية، الاقتصادية، والسياسية للمجتمعات التي يعيشون فيها.
- الشعور بالنقص والدونية والتهميش وأن مجتمعاتهم لا يعطونهم أي قدر من الاهتمام.
- انخفاض متطلبات جودة الحياة بالنسبة للفقراء وارتفاع نسبة الطلاق في أسر الفقراء، غياب الرجل عن دور الإنفاق في أحيان كثيرة وتصبح المرأة هي المعيلة تبني نمط من الحياة يختلف عن باقي طبقات المجتمع.²
- يعتبر لويس أوسكار كل أسرة عالما قائما بذاته يعكس بطريقته الخاصة شيئا من الثقافة المتغيرة في المكسيك، فأسرة مارتينيز تعكس تأثير بعض القوى التي تؤثر على الحياة الريفية منذ عام 1910.

¹ -.

² -.

وعائلة جوميز تصور حياة الأسرة في مرحلة الانتقال من الريف إلى المدينة فهي مازالت تحتفظ بعلاقتها مع الأقرباء في القرية وبالكثير من المعتقدات والأعراف القروية مع موجود تغيرات أساسية في الحياة العائلية من أهمها حلول الأم مكان الأب بالنسبة للدور السيادي في الأسرة وارتفاع مستوى المعيشة وزيادة فرص التحرر أمام الصغار.

أما أسرة جوتيريز فعلى الرغم من فقرها إلا أنه أكثر استقرارا من ناحية العلاقات بين الزوجين وبين الأبناء فهي تمثل الأسرة التي استقرت على أساس الحياة الحضرية في المناطق الفقيرة دون تطلع إلى حراك اجتماعي يؤثر على النسق التقليدي للمعايير والقيم.

أما أسرة سانشير فهي تصور الجمع بين سمات الأسرة العاملة وبعض سمات الأسرة المتوسطة، وهي تمثل نمطا معقدا من العلاقات بين أطرافها وإن كان الزوج حريصا على التمسك بالتزاماته تجاه أسرته، وهذا ما لا نجده في الأسرة الخامسة التي تمثل بعض الأنماط الأمريكية الحديثة، وهي الأسرة التي تعرضت لهجرة الزوج لحياة الأسرة، وظهور بعض الأعراض العصبية لدى بعض أعضائها.¹

توالى البحث في ثقافة الفقر بعد ذلك في دراسات لاحقة لأوسكار لويس والتي قام بجمعها ونشرها في كتاب بعنوان 'مقالات أنثروبولوجية' عام 1970 وكانت هذه الدراسات كلها تشير إلى مكونات تلك الثقافة من القيم والمعايير وخواص السلوك التي تواجه أولئك الذين يعيشون ظروف الفقر في مجتمعات الرأسمالية وقد ميز لويس أوسكار بين الفقر وثقافة الفقر وحاول أن يفهم الفقر وما صاحبه من سمات ثقافية ، وبمعنى أدق فأوكر لا ينظر إلى الفقر في ضوء الحرمان الاقتصادي أو أنه مظهر من مظاهر التفكك بل كثقافة للفقراء والحرمان يساعد الفقير على التكيف مع ظروف الحرمان الاقتصادي حتى يستطيع التكيف والاستمرار في الحياة فهناك ثقافة معينة تسيطر على الفقراء وتحول بينهم وبين الخلاص من الفقر.

الثقافة عبارة عن تفاصيل دقيقة في حياتنا اليومية ينسجها الأفراد لكي ينظموا عملهم الاجتماعي، والتمثلات الاجتماعية تنظم التفاعلات الاجتماعية وبذلك فالثقافة هي مجموعة من التمثلات التي تنظم داخل الجسد لتتحول إلى استعدادات وسلوكات اجتماعية.

ويعرف علماء الاجتماع الفقر بأنه عيش الكفاف أي توافر الشروط الأساسية التي يحتاجها المرء ليظل على قيد الحياة في وضع صحي معقول من غذاء ومأوى ودواء دون أن يتجاوز ذلك (عندما تغيب إحدى هذه الحاجات تسمى حرماناً).

إن الثقافة ترتبط بالتنشئة الاجتماعية لدى الأطفال، والتي تبدأ معهم في سن السابعة ولا يستطيعون التخلص منها، وتنتشر هذه الثقافة لدى المجتمعات التي تتميز بارتفاع نسبة البطالة وانخفاض الأجور وفشل النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي في توفير الخدمات الاجتماعية والاقتصادية لهؤلاء الفقراء.¹

وتشير ثقافة الفقر إلى مختلف المعايير وأنماط السلوك تبعا لأصلهم الاجتماعي، وردا على وضعيتهم الاجتماعية الهامشية وهي تعتبر بمثابة تكيف يجعل الفقراء يتأقلمون مع وضعيتهم في مجتمع طبقي رأسمالي وهي عبارة عن آليات تبريرية ثقافية ينتجها الفقير لكي يتجاوز فقدان الأمل واليأس، وهي تعيد إنتاج ذاتها وهي ثقافة مستمرة تنتقل من جيل إلى جيل آخر، ويمكن لثقافة الفقر أن تظهر إلى حيز الوجود في أنواع ذات سياقات تاريخية واجتماعية معينة.²

وهناك مجموعة من العوامل تتحكم في ثقافة الفقر منها:

- مستوى تعليمي هزيل.
- حقد تاريخي على العمل المؤسساتي وانتصار الفردانية وتلاشي العمل الجماعي.
- الأنماط السلوكية الغير سوية التي تكتسب من التاريخ والثقافة، فالفقير هو ضحية ثقافة (الله غالب بابا فقير، الرزق بيد الله، إن الله مع الصابرين، كل شيء بيد الله) بالرغم من وجود تأويلات خاطئة وبراعماتية للنص الديني مثلاً.
- خلفيات رمزية (مثل العبارات الشعبية المنتشرة "اللي ما قرأش خير، اللي قرأ واش اربح").³

1.-

2.-

تاسعا: الأزمة الأمريكية: جونار ميردال "GUNNAR MYRDAL"

تمهيد:

هناك حقائق دامغة لا يمكن تجاهلها عن المجتمع الأمريكي خاصة ما تعلق منها بالأزمة الأمريكية وإذا ما امعنا النظر في وضع الزواج في النصف الأول من القرن العشرين بدا لنا جليا تلك الظلال القائمة التي تم في طياتها تجسيد أوج صور العنصرية والاضطهاد الممارس ضد الزواج، حيث كان يعامل السود كعرق أدنى وحرّموا من العديد من الحقوق المدنية والسياسية فرغم ظهور المجتمع الأمريكي على أنه يمتلك توازن اجتماعي بحكم عقيدته وبشعار الأخوة والعدل والمساواة، إلا أنه من الداخل يحمل العديد من الصراعات والتناقضات بحكم المجموعات الإثنية والعرقية الموجودة بها وهذا ما أفرز أزمة اجتماعية حالت دون تحقيق العدالة الاجتماعية خاصة وأن التمييز العنصري عند الرجل الأبيض كان ضاربا في عقيدته ومرتسxa في قيمه ومبادئه لذا لجأ ساسة وقادة هذا المجتمع إلى محاولة تجاوز الأزمة بالاستعانة بالبحث العلمي لفهم جذورها ومن بين هؤلاء العلماء نجد 'جونار ميردال' الذي اعتمد في تحليل المعضلة الأمريكية في شقيها الثقافي والاقتصادي.

نبذة عن حياة 'جونار ميردال' 1898-1987:

هو اقتصادي سويدي ولد في 1898/12/06 وتوفي في 1987/05/17، تخرج من كلية الحقوق بجامعة ستوكهولم عام 1923 وبدأ ممارسة القانون مع مواصلة دراسته في الجامعة، حصل على درجة الدكتوراه في الاقتصاد عام 1927 وفي عام 1939 حصل على زمالة دراسية لمدة عام واحد من مؤسسة روكفلر الأمريكية، وفي السنة التالية حصل على فرصة تدريسية في معهد الدراسات الدولية العليا في جنيف ثم أصبح أستاذا في الاقتصاد السياسي في جامعة ستوكهولم بين عام 1933 و 1950، وفي عام 1934 أنتخب سيناتور في البرلمان السويدي عن الحزب الديمقراطي الاشتراكي، وفي عام 1938 تم انتدابه من مؤسسة كارنيجي CARNEGIE الأمريكية لدراسة المشاكل الاقتصادية للسكان السود وهي الدراسة التي وضعتهم على خارطة الأدب الاقتصادي والاجتماعي الأمريكي والعالمي، ليعاد انتخابه في مجلس الشيوخ السويدي عام 1942 ثم أصبح وزيرا للتجارة عام 1945 ثم استلم منصب السكرتير التنفيذي للأمم المتحدة مسؤولا عن الشؤون الاقتصادية في أوروبا (1947-1957) واتجه بعد ذلك مباشرة إلى دراسة شاملة عن الاتجاهات والسياسات الاقتصادية في بلدان جنوب آسيا

كما فتح عينيه على أزمات ومحن الشعوب في العالم الثالث، وفي عام 1961 عاد كأستاذ للاقتصاد الدولي في جامعة ستوكهولم كما أسس معهد دراسات الاقتصاد الدولي إضافة إلى ترأس معهد بحوث السلام ومجلس دراسات أمريكا اللاتينية وفي عام 1973 ذهب إلى الولايات المتحدة كزميل زائر في مركز دراسات المؤسسات الديمقراطية في جامعة كاليفورنيا سانتا باربارا، وفي عام 1974 حاز على جائزة نوبل في للاقتصاد وبقي إلى نهاية عام 1975 باستضافة جامعة نيويورك كأستاذ متميز زائر. حصل ميردال على أكثر من ثلاثين درجة فخرية بدءاً من جامعة هارفارد عام 1938، وقد تلقى العديد من الجوائز منها جائزة مالمينفسكي من جمعية الأنثروبولوجيا التطبيقية وكان عضواً في الأكاديمية البريطانية والأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم والأكاديمية السويدية الملكية للعلوم، وزميل جمعية الاقتصاد وعضو شرف الرابطة الاقتصادية الأمريكية.¹

إشكالية الدراسة:

ما هي الجوانب الاجتماعية لوضع الزواج في أمريكا وما هو أساس وسبب الأزمة بين الزواج والبيض؟

مجالات ومنهج الدراسة:

أجريت هذه الدراسة من عام 1938 إلى غاية 1940 وقد جاءت دراسته عن وضع الزواج الأمريكيين بمبادرة من مؤسسة كارنيجي عام 1937، وقد اختير ميردال لإنجاز هذه الدراسة كونه ينتمي لبلد قل ما نجد فيه السود وليس له تاريخ في التدخل الاستعماري، وقد صممت الدراسة لتكون دراسة شاملة عن الزواج في أمريكا وخاصة جنوب أمريكا، كما شارك في هذا البحث حوالي 150 باحثاً كمستشارين خبراء وباحثين ومؤلفين وعلماء اجتماع.

ظهرت ثلاث مجلدات عن الجوانب الاجتماعية لوضع الزواج قبل اكتمال التقرير النهائي.²

ويتسع مجال هذا البحث ليضم تاريخ الزواج وأصولهم وتركيبهم والخصائص الفيزيائية للزواج واختبارات الذكاء والشخصية وعرض لبيانات التعداد ونقدها ودراسات اعتمدت على الاستبيان وتاريخ الحالة النفسية، وتحليل الصور النمطية والإيديولوجيات الشائعة عند البيض عن الزواج، والجريمة والتعصب، ودور الزواج في الصناعة والزراعة وقطاع الأعمال الخاص والتعليم والحكومة وتفاوت الأجور التشريعات المتصلة بالمسائل العرقية...إلخ.

وقد اعتمدت الدراسة على المنهج الكيفي والوصفي من خلال وصف الوضع الاقتصادي والاجتماعية للزواج، والمنهج المقارن للمقارنة بين الأوضاع المعيشية والاجتماعية للبيض والسود (وقد تم كتابة ثلاثة مجلدات عن الجوانب الاجتماعية لوضع الزواج)¹

موضوع الدراسة:

تم اختيار جونا ميردال من طرف مؤسسة كارنيجي بنيويورك لأنها اعتقدت أنه غير أمريكي ويمكنه تقديم رأي أقل تحيزاً، وأجريت الدراسة بسرعة ملحوظة احتوى مجلد ميردال ما يقارب 1500 صفحة، يصف العقبات التي تقف أمام المشاركة الكاملة في المجتمع الأمريكي التي واجهها الزواج، كان لدراسة ميردال تأثيراً كبيراً في كيفية النظر إلى القضايا العرقية في الولايات المتحدة الأمريكية، وقد اعتبر أن الديمقراطية سوف تنتصر على العنصرية من نواحي عديدة وقد وضعت الأساس لسياسات مستقبلية للتكامل العرقي والعمل الإيجابي. ورأى أن مشكلة الزواج الأمريكيين هي مشكلة متأصلة في قلوب الشعب الأمريكي وهنا يكمن أساس التوتر بين الإثنيات حيث يعامل السود كعرق أدنى وقد حرموا من العديد من الحقوق المدنية والسياسية ومن مظاهر التمييز نجد مثلاً قوانين 'جيم كرو' التي فصلت رسمياً السود عن البيض وهي تجسد مظهر من مظاهر القاعدة الاستبدادية الموجهة بشكل خاص إلى مجموعة الزواج، الفصل في المدارس العامة وفي الإقامات والأماكن العامة، منع الزواج بين الأعراق، حرمان وإزالة المكاسب السياسية والاقتصادية التي حققها السود خلال فترة إعادة الإعمار، وعملياً فقد فرضت قوانين جيم كرو الفصل العنصري في جميع المرافق العامة في الولايات المتحدة الأمريكية بما فيها التعلم العام ووسائل النقل (الحافلات، القطارات، الحافلات بين الولايات) توفير مرافق تتوفر على الخدمات الضرورية على حساب الزواج، فصل الحمامات والمطاعم ونوافير الشرب، فصل الجيش الأمريكي بالفعل بالإضافة إلى الفصل في أماكن العمل الفيدرالية والحرمان من حق الاقتراع، وقد أيدت المحكمة العليا في الولايات المتحدة الأمريكية هذا العزل العنصري بموجب القانون، بمعنى أنه كان هناك عزل عنصري في الولايات المتحدة بشقيه؛ الشق القانوني والشق الاجتماعي، وقد ساد اعتقاد بين العديد من البيض بأن وجود السود في أحياء البيض من شأنه أن يقلل قيم الممتلكات ويشوه الحي أو المدينة.

ولهذا خلص ميردال إلى أن مشكلة الزواج هي في الأساس مشكلة "الرجل الأبيض" وهذا يعني أن البيض كمجموعة كانوا مسؤولين عن الوضع غير المواتي الذي حوَّصر فيه السود، وأن مكمن المشكلة هو الأزمة

¹ - المرجع السابق، ص 32.

الأخلاقية للشعب الأمريكي (أو ما يطلق عليها بالعقيدة الأمريكية) حيث يفكر الأمريكيون ويتصرفون وفق شعارات وتعاليم أخلاقية ذات طبيعة قومية ومسيحية من ناحية، وأحكام قيمية على مستويات خاصة للحياة الفردية والجماعية حيث تسيطر على المواطن الأمريكي وجهة نظره في المصالح الشخصية والمحلية والحقد الاجتماعي والاقتصادي والعنصري واعتبارات الهيبة والامتثال في المجتمع المحلي والتعصب الجماعي أشخاص أو نماذج معينة من الناس (هناك تناقض في الولايات المتحدة، من جهة هناك عقيدة تنص على الإيمان بأن الناس خلقوا متساوين بدعوى الديمقراطية ولهم حقوق متساوية وهذه العقيدة هي التي تحافظ على الحريات المدنية وتكافؤ الفرص وتنوع بوتقة الولايات المتحدة الأمريكية، ومن ناحية أخرى يعامل السود كعرق أدنى يعاني الألم والحرمان والاضطهاد والازدراء).

نتائج الدراسة وحلول الأزمة:

تمثل دراسة جونار ميردال الأكثر شمولا للعلاقات العرقية في الولايات المتحدة الأمريكية وكان لها صدى مذهل مع الحاجة الملحة إلى معالجة عدم المساواة وقد قاد ميردال البحث وكان المسؤول الوحيد عن التقرير النهائي، فقد كانت الدراسة تجربة وتعاوناً حقيقياً بين العلماء من مختلف التخصصات كشفت عن جملة من النتائج أهمها:

- مشكلة الزواج الأمريكيين هي مشكلة تنشئة اجتماعية للبيض، فالقيم والمبادئ والثقافة المتوارثة والمغروسة فيهم تبعث على الاحتقار والدونية للسود.

- الأزمة الأمريكية تعني الصراع العنيف بين الأحكام القيمية (العقيدة الأمريكية) حيث يفكر الأمريكيون ويتصرفون تحت تأثير قوي لتعاليم أخلاقية ذات طبيعة قومية ومسيحية وبين الأحكام القيمية وثقافة الاختلاف التي ما تنفك تطغى على افكر والسلوك والعلاقات وتفرز حقداً دفيناً اتجاه الزواج، فأسباب مشكلة الزواج الأمريكيين حسب ميردال ينبغي البحث عنها في معتقدات وتصرفات الأغلبية البيضاء لا في معتقدات الأقلية السوداء.

- في رأي ميردال أن القاسم المشترك في المشكلة العرقية الأمريكية هو رفض الأمريكيين البيض الاندماج مع السود والتأكيد على الفصل العنصري بشقيه القانوني والاجتماعي من أجل الحيلولة دو مد جسر للعلاقات التي قد تؤدي إلى التزاوج.

- لقد أشار ميردال إلى ما أسماه بالنظام التراتبي للتمييز العنصري عند الرجل الأبيض والذي يعد بمثابة الآلية التي تبقي الزوج في فقرهم وهو يقوم على تحريم الزواج والاتصال الجنسي بين الرجل الزنحي والمرأة البيضاء، وضع حواجز أمام قيام أي نوع من العلاقات الاجتماعية والحرص على تدعيم وتكريس سياسة الفصل في الأماكن العامة بالإضافة إلى الحرمان من حق التصويت السياسي وكل ما هو مرتبط بالجوانب السياسية، والتمييز الاقتصادي إذ أن البيض يعيشون في أحياء السود في أحياء أقل ما يقال عنها أن مظاهر الفقر والحياة المتدنية هي السائدة.¹

حل مشكلة العنصرية حسب ميردال:

اعتقد ميردال أنه رأى حلقة مفرغة يقوم بها البيض بقمع السود وأشار إلى ضعف أداء السود كسبب للقمع والاستغلال والاستبعاد، وقد حاول إعطاء فكرة عن التفسير الحقيقي للأسوداد العنصري ورأى أن المخرج من هذه الحلقة المفرغة لا يتأتى إلا عن طريق:

- علاج البيض من التحيز الذي يعتقد أنه موجود ومتأصل في الممارسة العرقية.
- النضال من أجل تغيير مسار عدم المساواة العرقية الأمريكية وتحسين ظروف السود والتي من شأنها دحض مفاهيم البيض المسبقة والحصول على حقوق متساوية بموجب القانون.

عاشرًا: دراسة الجندي الأمريكي: صامويل ستوفر "SAMUEL STOUFFER"

جاءت هذه الدراسة لتبرز المشاكل البنيوية في الجيش الأمريكي ودراسة تراجع الثقة وضعف الجهوية العسكرية في الجيش الأمريكي، وبعد الهجوم الياباني على بيرل هاربور بفترة قصيرة تم تعيي عالم الاجتماع 'صامويل ستوفر' مديرا مدنيا لفرع البحوث researchbranch المنشأ حديثا والذي أصبح فيما بعد إدارة المعلومات والتعليم بالقوات المسلحة الأمريكية، وترأس هذه الإدارة الجنرال 'فريدريك أوسبورن' وهو رجل أعمال سابق وعالم اجتماع أيضا، وقد أنشأ فرع البحث للقيام بمهام هندسية اجتماعية وليست مهام علمية وكانت وظيفته إجراء مسح الاتجاهات عندما تشعر الإدارة العليا بمشكلات تحتاج إلى معلومات شاملة ذات طبيعة مسحية.¹

نبذة عن حياة صامويل ستوفر (1900-1960):

عالم اجتماع أمريكي من مواليد 1900/06/06 بمنطقة ساك سيتي بأيو الأمريكية، ساهم في تطور علم الاجتماع، درس بجامعة هارفرد وجامعة شيكاغو وجامعة لندن، اهتم بالدراسات الديمغرافية والبحوث الاستقصائية الخاصة بالمواقف والآراء وخاصة أثناء الحرب العالمية الثانية، درس في عدة جامعات حيث عمل 'ستوفر' أستاذا للإحصاءات الاجتماعية في جامعة ويسكونسن، وفي عام 1935 عمل أستاذا لعلم الاجتماع بجامعة شيكاغو، حيث بقى هناك إلى عام 1946 وخلال الحرب العالمية الثانية عمل ستوفر ككبير علماء الاجتماع في فرع الأبحاث والتعليم في بجيش الولايات المتحدة الأمريكية قصد مسح الجنود والتوصية بسياسات الموظفين استنادا إلى النتائج التي توصلوا إليها عام 1946، بعدها أصبح ستوفر المدير المؤسس لمختبر العلاقات الاجتماعية في جامعة هارفرد حتى وافته المنية في 1960/08/24 ومن أهم مؤلفاته 'الجندي الأمريكي' الذي صدر عام 1949 وقد نشر في أربع مجلدات تحت عنوان دراسات في علم النفس الاجتماعي، وكتاب البحث الاجتماعي عن موضوع قياسات علم الاجتماع الذي نشر عام 1962.²

مجالات الدراسة:

1.-

2.-

أجريت الدراسة في بيرل هاربور التي تعتبر ميناء وقاعدة عسكرية خلال السنوات الخمس التي أعقبت الحرب العالمية الثانية وتعتبر المقر الرئيسي للأسطول البحري للولايات المتحدة الأمريكية في المحيط الهادي والذي يقع جنوب جزيرة أوهو التابعة لجزر هاواي، حيث نفذت هذه الدراسة إشراف البروفيسور ستوفر بمنحة من مؤسسة كارينجي.

قام فرع البحوث بمقابلة ما يزيد عن 500 ألف شخص بالاستعانة بأكثر من 200 استبيان مختلف، وقام بإعداد عدة مئات من التقارير عن نتائجه لأغراض عسكرية متعددة، إلا أنها لم تستغل مطلقا القيمة العملية لهذه البيانات العزيرة.¹

منهج وتقنيات الدراسة:

بانتهاى الحرب العالمية الثانية قام فرع البحوث (بقيادة ستوفر ومعاونيه) بمقابلة ما يزيد عن نصف مليون شخص بالاستعانة بأكثر من 200 استبيان مختلف وقام بإعداد مئات التقارير عن نتائجه لأغراض عسكرية، وقد عهد بهذه المهمة إلى لجنة خاصة برئاسة الجنرال فريدريك أوسبورن (وهو رجل أعمال سابق وعالم اجتماع قبل أن يكون عسكريا) بغرض إجراء مسح الاتجاهات بين الجنود عند التنبؤ بحدوث أي مشاكل داخل الجيش فقد طلبت الإدارة مثلا تحليل العوامل التي جعلت الجنود في مسرح العمليات بجنوب المحيط الهادي ينفرون من استخدام عقار الأترين المضاد للملاريا والكشف عن أي نوع من الأكواخ يفضله الجنود في ألاسكا، ودراسة حالة مغاسل الملابس في بونما واتجاهات الجنود نحو الصينيين في مسرح العمليات بالهند وبورما؛ (معتمدين على المنهج الكيفي).

وصلت قائمة الأشخاص العلميين والإداريين في هذه الدراسة إلى 134 اسما فعلى غرار مشروع ميردال كان هذا المشروع تعاونيا على أوسع نطاق وتبرز صفحات العنوانين في المجلدات الأربعة اسم 15 مؤلفا رئيسيا ولم يضاهي أي بحث اجتماعي بعد ذلك هذا البحث في مجال، وكان الهدف من تطوير وإصلاح المؤسسات العسكرية، أما عن مواضيع الدراسة في المجلدات الأربعة فهي:

- المجلد الأول: متعلق بالتكيف الشخصي للجنود خاصة الجنود المدنيين الذين خدموا في الجيش بصفة مؤقتة أثناء الحرب العالمية الثانية.

- المجلد الثاني: متعلق بالمشكلات المتعلقة بالحرب وما بعدها.

- المجلد الثالث: متعلق برد فعل الجمهور المشاهدين العسكريين للأفلام التوجيهية وغيرها من المواد الدعائية.

- المجلد الرابع: متعلق بمعالجة دقيقة لنظرية قياس الاتجاهات وتطبيقها ومناقشة لثلاث مناهج دقيقة لتحليل بيانات المسح وهي: تحليل المقاييس، تحليل البناء الكامن، واستخدام استجابات المسح لأغراض تنبؤية.

وتتميز موضوعات المجلدات الأربعة بالغزارة والارتباط الوثيق، وبالرغم من اعتماد كتاب الجندي الأمريكي على علوم عديدة خاصة علم النفس وعلم النفس الاجتماعي، فإنه يعد سوسيولوجيا في منهجه (مسوح الاتجاهات) وفي طبيعة نتائجه، كما أن معظم التفسيرات والتحليلات التي تلت نشر هذا الكتاب ركزت على المضامين السوسيولوجية للبيانات لا على أهميتها النفسية أو التاريخية أو الإدارية.

محتوى الدراسة:

يعد كتاب الجندي الأمريكي بمثابة انتقاد شديد لواحد من أكبر التنظيمات التي عرفها المجتمع الحديث وقد كشفت بيانات هذه الدراسة عن حالة ملحوظة لملايين الرجال المشغولين بنضال شديد من أجل مثل اجتماعية مطلقة في الوقت الذي لا يوجد فيه التزام حقيقي بهذه المثل الاجتماعية وبهذه القضية بين أعداد ضخمة منهم، ولا توجد لديهم ثقة في قادتهم ولا يوجد لديهم سوى احتقار المعايير التي تنظم حياتهم وقد بينت الدراسة أن هناك ثلاثة من خمسة مقاتلين خدموا في معارك ما وراء البحار كانت لديهم شكوك حول مشروعية الحرب، وكان الجيش الأمريكي في الحرب العالمية الثانية يتكون في معظمه من رجال جندوا بهدف كسب حرب ظلت أهدافها الإيديولوجية غامضة عليهم بعض الشيء، ويوضح المجلد الثالث كيفية ظهور هذا الوضع وأسباب عدم المقدرة على معالجته¹، ويبحث المجلد الثالث عن رد فعل الجمهور المشاهدين العسكريين نحن سلسلة من الأفلام التوجيهية والبرامج الدعائية بعنوان لماذا نقاتل وهي سلسلة أفلام رائعة تعيد إلى الأذهان الأحداث أو ليست لديهم آراء بشأنها وقت حدوثها، وهذا يفسر أسباب قبول مغزى هذه الأفلام بين المشاهدين العسكريين وتأثيرها المحدود على اتجاهاتهم نحو الحرب، وهناك تجارب أخرى تتعلق بالدعاية وهي تجارب نظرية بسيطة فعلى سبيل المثال تم إعداد نوعين من البرامج الإذاعية بعد انتهاء الحرب بأوروبا لإقناع الجنود بأنه لا يوجد مبرر وراء تفاؤلهم بسلام مبكر في المحيط الهادي وكانت القضية المثارة هي ما إذا كان البرنامج الإذاعي الذي يقدم المزاعم وراء الموقف الرسمي (المتشائم) أكثر إقناعاً من البرنامج الإذاعي الذي يقدم المزاعم وراء الموقفين التفاؤلي والتشاؤمي في محاولة لتنفيذ المزاعم المعارضة للموقف الرسمي وكان تأثير هذين البرنامجين متعادلاً في بداية الأمر، فقد تغيرت آراء ما يقارب من

نصف المشاهدين في كلتا الحالتين إلى الاتجاه المرغوب فيه إلا أنه بدأت اختلافات حادة في تأثير البرنامجين عند تقسيم المشاهدين إلى جماعات فرعية.

كان البرنامج الذي استعرض الموقفين التفاوضي والتشاؤمي أكثر إقناعاً من البرنامج الذي عرض وجهة نظر واحدة لمن كانوا في صف الموقف الرسمي، وكان البرنامج ذو الموقف الواحد أكثر تأثيراً في الجنود الأقل تعليماً، في حين كان البرنامج ذو الموقفين أكثر تأثيراً في الجنود خريجي المدارس العليا والجامعات، وتبدو الاختلافات في التأثير أكثر وضوحاً عندما يأخذ في عين الاعتبار الآراء المسبقة قبل التجربة والمستوى التعليمي (أدى البرنامج ذو الموقفين إلى إقناع 44% من الجنود الأكثر تعلماً المعارضين للموقف الرسمي في البداية بالاتجاه المرغوب فيه، كما أحدثت نفس البرامج تأثيراً عكسياً في الجنود الأقل تعليماً الذين كانوا في صف الموقف الرسمي منذ البداية).¹

هدفت هذه التجارب إلى تعليم السلطات العسكرية كيفية التأثير في آراء وعواطف ضبط الصفوف والجنود، فقد كان الهدف منذ البداية هو الهندسة الاجتماعية (وهو تخصص يدرس الجهود المبذولة للتأثير على الموقف الشعبي والسلوك الاجتماعي على نطاق واسع سواء من قبل الحكومة أو مجموعات خاصة) باعتبارها سلاحاً في يد الإدارة العسكرية.

وقد استخدمت الدراسة مجموعة من المفاهيم من أهمها مفهوم الحرمان النسبي وهو مصطلح يستخدم في العلوم الاجتماعية لوصف مشاعر أو مقاييس الحرمان الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي بشكل نسبي وليس المطلق. يترك الحرمان النسبي عواقب مهمة على السلوك والمواقف وهو يرتبط بمصطلحات مشابهة مثل (الاستبعاد الاجتماعي والفقر) وقد استخدم مؤلفوا كتاب 'الجندي الأمريكي' الذين درسوا وحدات الجيش هذا المفهوم بشكل منهجي واكتشفوا أن الفرق المتصور بين التوقع والتحصيل هو الذي يؤدي إلى مشاعر الحرمان النسبي.²

نتائج الدراسة:

توصلت الدراسة إلى جملة من النتائج أهمها: ^{3 4}

1.-

3.-

4.-

- تأثير الحرمان النسبي حيث لوحظ على سبيل المثال أن الزنوج في المعسكرات الشمالية كانوا أسوأ تكيفا من الزنوج في المعسكرات الجنوبية، لأن أساس المقارنة عند الجندي في الجنوب وفي الشمال كان وضع الشخص المدني، وأن الوضع السيء للزنوج المدني في الجنوب كان بمثابة معادل للمعاملة السيئة للزنوج في المعسكرات الجنوبية، كما أن الوحدات العسكرية تبدأ في التفكك عندما تتعرض للقتال أو لأية صورة من صور المعاناة لفترات طويلة.

- كما أكد المحللون تأثير الدور والمكانة في تعديل الاتجاهات وتؤدي أيضا إلى الخطأ في حكم جماعة على جماعة أخرى، بمعنى أن الاختلافات في الدور والمكانة يؤدي إلى الاختلاف في الاتجاه وأيضا إلى الخطأ في حكم جماعة على جماعة أخرى.

- كتاب الجندي الأمريكي يعد انتقاداً لأكبر التنظيمات التي عرفها العالم الحديث وقد توصلوا إلى أن الناس غير راضين عن الأنساق الاجتماعية التي وجدوا أنفسهم فيها، فغير خفي أن الجيش وقت الحرب كان يعمه الاستياء من سوء استخدام امتيازات الرتبة وأن هذا الشعور كان له آثار عكسية شديدة على الروح المعنوية (باستثناء القوات الجوية التي تسودها ظروف مختلفة).

- بالإضافة إلى عدم وجود التزام حقيقي بالمثل الاجتماعية وانعدام الثقة في القادة بل على العكس هناك احتقار للمعايير التي تنظم حياة الجنود وشكوك حول مشروعية الحرب أصلاً.

- كما كشفت الدراسة عن سوء استخدام الأنساق العسكرية من خلال القنوات السرية للمفتش العام

- هدفت الدراسة إلى تعليم السلطات العسكرية كيفية التأثير في آراء وعواطف الجنود وضباط الصف في الجيش الأمريكي.

- ورغم النتائج والبيانات الغزيرة التي وردت في كتاب الجندي الأمريكي، إلا أن الجهات الوصية لم تحاول الاستفادة منها لتطوير برنامج منظم لإصلاح المؤسسات العسكرية بل كانت الإصلاحات الرئيسية التي تمت في الجيش بعد الحرب العالمية الثانية مجرد إصلاحات داخلية متعلقة بتحقيق العدالة العسكرية أو دعمها وهو الموضوع الذي لم يعالجه كتاب الجندي الأمريكي.

ما نستنتجه أن مؤسسة الجيش الأمريكي آنذاك كان رد فعلها اتجاه هذه الدراسة هو اللامبالاة.

إحدى عشر: الغرباء 'الوصم الاجتماعي': هوارد بيكر "HOWARD BECKER"

تمهيد:

بعد بروز علم الاجتماع كعلم قائم بذاته، وانفصاله عن الفلسفة أصبحت دراسة الظواهر والمشكلات الاجتماعية تتم وفق دراسة علمية ومنهجية، وتعتبر دراسة الغرباء من أهم الدراسات المؤسسة لعلم الاجتماع التي ساهمت بإضافتها في تفسير الواقع الاجتماعي وخاصة ما تعلق منها بتفسير الأبحاث التي ترتبط بالانحراف والجريمة وجنوح الأحداث، وقد نشر نظريته عن الوصم الاجتماعي في كتابه الموسوم 'الفكر الاجتماعي من الخرافة إلى

العلم' (نشر عام 1961)، وأضاف معلومات جديدة إلى نظرية الوصم وطورها في كتابه الموسوم 'الغرباء، دراسات في علم اجتماع الانحراف'¹

تستخدم نظرية الوصم عادة كنظرية متخصصة في السلوك الإجرامي والسلوك المنحرف وأبحاث جنوح الأحداث والأمراض النفسية والعقلية الناجمة عن اضطراب الوسط أو البيئة الاجتماعية.

نبذة عن حياة هوارد سول بيكر "HOWARD SAUL BECKER":

هو عالم اجتماع أمريكي ولد في 1928/04/18 في شيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكية، قدم مساهمات كبيرة في سوسيولوجيا الانحراف وسوسيولوجيا الموسيقى وسوسيولوجيا الفن، وقدم في كتابه الغرباء أسس نظرية الوصم ويعتبر جزء من مدرسة شيكاغو، وقد تحصل على الدكتوراه من هذه الجامعة وعمل ثلاث سنوات مدرسا في علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية بها، وفي 1965 أصبح بيكر أستاذا في علم الاجتماع في جامعة نورث ويسترن حتى عام 1991، كما قام بالتدريس بصفته أستاذا زائرا في جامعة مانشستر وعالما زائرا في المتحف الوطني بريتو دي جانيرو، وفي عام 1991 أصبح بيكر أستاذا لعلم الاجتماع وأستاذ مساعد للموسيقى بجامعة واشنطن عام 1996 حتى تقاعده سنة 1999.

حصل بيكر على العديد من الجوائز في مجاله (زمالة غوغنهايم* بين عامي 1978 و 1979، وجائزة تشالزهورتونكوني المقدمة من جمعية دراسة التفاعل الرمزي في عام 1980، وجائزة كومنولث ويلث في عام 1981، وجائزة كولي ميد قفي قسم علم النفس الاجتماعي التي تقدمها الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع لعام 1985، وجائزة جورج هيربرت ميد المقدمة من جمعية التفاعل الرمزي في عام 1987، وجائزة السيرة المهنية للمنحة الدراسية المميّزة المقدمة من الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع عام 1990، كما حصل على درجات فخرية من جامعة باريس الثامنة وجامعة بيار منديس فرانس في غرونوبل، وجامعة إيراسموس في روتردام والمدرسة العليا للعلوم الإنسانية في ليون²، وتوفي عن عمر يناهز 95 سنة في 2023/08/16.

إشكالية وموضوع الدراسة:

تدور إشكالية الدراسة حول كيفية نظرة المجتمع إلى المنحرفين وكيف يلعب التفاعل الاجتماعي دورا في تعلم كيفية استخدام المخدر (الماريخوانا) والاستمتاع به.

قبل ظهور نظرية الوصم كان علماء الإجرام يفسرون السلوك الإجرامي بموجب العوامل السببية للجريمة وآثارها على المجتمع بالانحراف¹، أي البحث في أسباب السلوك الإجرامي وتفسيره إلى العوامل السببية للجريمة وآثارها على البناء الاجتماعي. لكن بيكر ومن خلال نظريته الوصم الاجتماعي نحى باتجاه آخر في تفسير السلوك الإجرامي وتعدت التفسيرات المتمركزة حول الأسباب المحيطة بالحجم أو آثار الجريمة على المجتمع إلى نظرة هذا المجتمع في حد ذاته إلى المجرم الجانح، وهي بذلك قد خرجت عن الإطار التقليدي الذي يفضي إلى التركيز على الأسباب ونتائج الجريمة إلى التركيز على نظرة المجتمع إلى هذا المجرم، وأثر هذه النظرية في السلوك الإجرامي المستقبلي للشخص الذي ارتكب جنحة أو فعلا إجراميا أو سلوكا منحرفا.

إن نظرية الوصم هي من النظريات التفسيرية نسبيا في علم الاجتماع الجنائي والتي تحاول تفسر الانحراف والسلوك الإجرامي وقد بدأت تقريبا في الخمسينات مع الباحث الأمريكي 'أدوين ليمرت' واستكملت النظرية على يد 'هاوارد بيكر' الذي أعطاها بعدا سوسيولوجيا، فالوصم هو عملية اجتماعية لا يرجع للفعل الإجرامي في ذاته، فالفعل ليس هو الذي يحدد ما هو انحراف وما هو دون ذلك، بل أن ما يقوم بذلك هو ردود الأفعال الاجتماعية التي تأتي بعد ذلك وتتبع السلوك الإجرامي (بمعنى أن الوصم هو بين طرفين، الفعل الانحرافي ذاته، وردود الفعل الاجتماعية تجاه ذلك الفعل).

وبالرغم من أن بيكر لا يدعي أنه متخصص في الانحراف، لكن علماء الاجتماع والجريمة يستشهدون لعمله في هذا الموضوع، وقد حظي بيكر بكونه موسيقيا بتجارب مباشرة في مجال المخدرات، وتوضح أولى مقالاته بعنوان 'عندما تصبح متعاطيا للماريخوانا' كيف يلعب التفاعل الاجتماعي دورا في تعلم كيفية استخدام المخدر والاستمتاع به، ويضيف المقال الثاني 'استخدام الماريخوانا والرقابة الاجتماعية' كيف تفيد آليات الرقابة في الحد من تعاطي المخدرات، علاوة على ذلك فأراه وأفكاره حول تصنيف المتعاطين على أنهم منحرفون باعتبار أن "الانحراف هو مجرد تركيب اجتماعي يستخدم لإقناع الجمهور بالخوف وتجريم مجموعات معينة"، وهو ما لم يجبهه بيكر حيث أصدر في أواخر الستينات من القرن الماضي مقالين إضافيين عن ثقافة المخدرات بعنوان 'التاريخ والثقافة والتجربة الذاتية: اكتشاف الأسس الاجتماعية للتجارب الناتجة عن تعاطي المخدرات' و 'القضاء على حوادث المخدرات

في الحرم الجامعي'. ومن إسهاماته أيضا في سوسيولوجيا الانحراف دراساته عن الثقافة المنحرفة في كتاب 'الغرباء' حيث درس بيكر تشكل الثقافات المنحرفة عبر رصده للموسيقيين وقد اختار عينة الدراسة من مجموعتين منحرفتين هما: مستخدموا الماريخوانا، والموسيقيون الراقصون (موسيقى الجاز)، وبالاعتماد على التحقيق المباشر أوضح بيكر من خلالها الدور الأساسي للمجتمع في تحديد السير المهنية المنحرفة، ذلك أن المقاربة والمفاهيم المستعملة لدراسة ممتلئة موسيقى الجاز أو مدخني الماريخوانا هي مقتبسة من دراسة مهنة ووضعية الشغل، واستنادا إلى الفكرة القائلة أن كل وضعية قائمة هي نتاج تفاعل بين مختلف الأعوان، ومن أجل دراسة السلوكات المنحرفة في ضوء دراساته لثقافة الانحراف وتركيزه على مفهوم 'المهن المنحرفة' في حالة الموسيقيين مثلا اختبر بيكر نتائج الاختبارات الفردية لتلك المهن التي تصنف أساسا ضمن المجموعات المنحرفة وكيف يلعب ذلك دورا في تصنيف الشخص الذي اختار المهنة على أنه منحرف وفي رأي بيكر أن الانحراف الاجتماعي ليس فردا منحرفا بطبيعته وأنه لا ينبغي الانطلاق من إحصائيات ومعطيات رسمية، بل يجب النظر والاهتمام أيضا بأولئك الذين يفرضون المعايير والقيم ويلبسون التهم من خلال تبيان كيف يصل هذا الفرد أو تلك الجماعة إلى انتهاك المعيار ليصنف بعدها منحرفا، من يتهم من وبماذا يتهمه؟ هذا هو السؤال الذي ينبغي طرحه والتركيز والانطلاق منه.

فحسب المنظور الذي يتبناه 'بيكر' ليس الانحراف خاصية مرتبطة بفئة معينة من الأشخاص، فميزة الانحراف أو غير الانحراف لفعل معين تتوقف على الطريقة التي يتفاعل بها الآخرون فالانحراف يعبر عن مسافة في العلاقة تحدد بمعايير وضعتها مجموعة اجتماعية.

ومن داخل سوسيولوجيا المهن إذن يستعير 'بيكر' مفهوم الحياة المهنية من أجل تحليل مسارات المنحرفين، إذ نجد فكرة التدرج والتطور المرحلي في الجريمة تماما كالذي يحدث وفقا لمفهوم الحياة المهنية، فالسلوك الانحرافي سلوك يُتعلم وقابل للاكتساب تدريجيا، فالسرقة مثلا تصبح حرفة يتم تعلمها وهي ليست بتلك البساطة ولا ترتبط فقط بالاستعداد، وقد اختبر 'بيكر' نتائج الاختبارات الفردية لمهن تصنف في المجتمع على أنها ضمن المجموعات المنحرفة وكيف يلعب ذلك دورا في تصنيف الشخص الذي اختار المهنة على أنه منحرف (ليصبح المنحرف هو الذي طبقت عليه هذه التسمية بنجاح وبمجرد اعتباره منحرفا يرجح أن يسلك الفرد طرقا منحرفة).

وقد وجد الباحثون من الاستقراء الواقعي أن الأدوار المنحرفة تؤثر بشدة على رؤيتنا لهؤلاء الذين يحملون هذه الأدوار، وتؤثر أيضا على رؤية المنحرف لنفسه وعلاقته بالمجتمع فيرتبط بذلك الدور المنحرف بهم كشكل من العار الاجتماعي، وحسب النظرية التصنيفية للانحراف فالمجتمعات هي التي تحدد الانحراف من عدمه وذلك من خلال لإقرار المعايير والقواعد التي يعد انتهاكا لها انحرافا من منظور أبناء ذلك المجتمع، فكأن الانحراف هو مسألة تتعلق

بثقافة المجتمع وبنظرة أفراده¹، ويعزز تطبيق الألقاب السلبية مثل (المجرم والجاني) السلوك المنحرف، لتصبح هذه الألقاب نبوءة ذاتية التحقق ويصبح الفرد الذي يوصم لا خيار له سوى الامتثال للمعنى الأساسي للحكم الذي أطلق عليه وقد افترضت هذه النظرية (نظرية الوصم) إمكانية منع الانحراف الاجتماعي عبر الحد من ردود الفعل الواسمة بالعار الاجتماعي الصادر من مطلقي ألفاظ الوصم واستبدالها بالرفض الأخلاقي مع التسامح، فهي تؤكد على إصلاح المجرمين والمنحرفين عبر تغيير الوصم في حد ذاته، وبذلك فإن سياسات منع الإجرام يجب أن تتضمن برامج تمكين العميل، والوساطة والتعويض والمصالحة بين الضحية والجاني (العدالة التصالحية).

وعلى العموم فإن نظرية الوصم الاجتماعي تركز إلى خمسة مبادئ رئيسية وهي:²

- (1) إن وصم الفرد بالجريمة قد يكون صحيحا أو غير صحيح، إلا أن المجتمع قد كوّن هذه النظرة عنه وبقيت مترسخة في المجتمع اتجاهه.³
- (2) وجود علاقة ملئية بالشكوك والشبهات بين المجرم والمجتمع الذي وصمه بالجريمة والمجتمع.
- (3) إن وصم المجتمع للفرد بالجريمة قد جعله يشعر بأنه مجرم، إذ أن تقييم المجتمع للفرد يؤثر في تقييم الفرد لذاته فتراجع قيمته لنفسه ويجرح شعوره، مما يدفعه إلى ارتكاب المزيد من الجرائم ضد المجتمع.
- (4) تصنيف الجرائم إلى صنفين: جرائم أولية قد افتعلها الفرد حقيقة كالقتل والسرقة والغش (بالرغم أنه قد لا توجد إرادة مسبقة لذلك الفرد للقيام بالسلوك المنحرف ولا يعترف أن ما يقوم به انحراف بل يسمى سلوكه بمسميات أخرى كالطيش والمراهقة... إلخ)، والجرائم الثانوية وهي التي يقوم بها الفرد عن إرادة وإدراك ووعي تام ويقرون بأن ما يقومون به هو فعل منحرف وذلك نتيجة للنظرة السلبية التي يحملها المجتمع عنه.

والسبب في الانتقال من الانحراف الأولي إلى الثانوي يرجع إلى الصورة الجديدة التي يرى فيها الفرد نفسه من خلال الآخرين، وكل ما استمر مفعول الوصم كل ما استمر بإنتاج صورة مغايرة للفرد عن ذاته وكل ما تعمق في الانحراف.

5) إن أسباب السلوك الاجتماعي والانحراف السلوكي لا تتعلق بالمجرم نفسه أو بالظروف الموضوعية التي يمر بها وإنما تتعلق بوصم المجتمع للمجرم بالجريمة، هذا الوصم الذي يدفع الفرد إلى المزيد من الانحراف والجريمة والجناح، أي أن الألقاب التي تطلق على الأفراد تؤثر في سلوكهم وتعزز انحرافهم نحو السلوك الإجرامي.

أهم نتائج الدراسة:

- ركزت هذه النظرية في تفسيرها للجريمة على الفعل ودور المجتمع من خلال مؤسساته في خلق الجريمة.
- ترى النظرية أن الفرد يستجيب لمعنى 'الفعل' الوصم وليس للفعل ذاته أي أننا نرى أنفسنا من خلال الآخرين.
- الأشخاص الأقوياء في المجتمع يقل وصمهم على عكس الأشخاص الأقل مكانة اجتماعية
- ترى النظرية أن ردة فعل المجتمع قد تخلق شخصية المجرم وتختلف ردة فعل المجتمع باختلاف الزمان والمكان والفاعل والمشاهدين.
- ترى هذه النظرية أن المجرمين ليسوا مختلفين عن غير المجرمين، ولكن أفعال وسلوكيات بعض الناس يتم التركيز عليها وتلفت الأنظار إليها، بينما يتم تجاهل سلوكيات الآخرين.
- ترى النظرية أن الفعل نفسه ليس طيباً أو شريفاً وإنما يعتمد على نظرة المجتمع ويتركز 'بيكر' على تأثير الوصم على الفرد الذي تم وصمه بالانحراف أو الإجرام ومدى حدوث تحولات في شخصيته وأدائه الاجتماعي (يتشكل لدى وعي جديد بالرفض والنقد الاجتماعي فتكون النتيجة الانحراف في دائرة احترام الجريمة بعيداً عن أي نشاط شرعي)¹
- كما ترى النظرية أن مؤسسات الضبط الاجتماعي تعمل على وصم الأفراد بالانحراف وبالتالي تزيد من نسبة الإجرام.
- ترى أيضاً أن الجماعات الاجتماعية تخلق من خلال صناعة القواعد وخرقها يشكل الانحراف (العاق، السارق، القاتل... إلخ) فالانحراف صناعة اجتماعية والشخص الذي يتم وصمه يتشرب الدور وبالتالي يؤدي قبوله إلى تغيير الذات لديه مثل شخص سارق ويقوم هو بتمثيل هذا الدور.
- الفرد يرتكب انحرافاً أولاً تقابله ردة فعل اجتماعية ثم يرتكب نفس الجريمة مرة أخرى فتقابله ردة فعل أشد إلى أن تتشكل هوية المجرم، ذلك أن الانحراف يدل على نوعية رد الفعل وليس السلوك نفسه فإن لم تكن ردة فعل لا يكون انحراف.

- خلص 'بيكر' إلى أن عملية الوصم تعد جريمة لأنها تساهم في صناعة المجرم.

وخلاصة القول أن 'بيكر' اهتم ببناء الانحراف ورأى أن الانحراف هو تنويع لسلسلة تفاعلات اجتماعية تنتج عنها فرض علامة سمة الإجرام وتكون لها آثار على هوية الشخص، واستخدم 'بيكر' مفهوم مسار المنحرف قياسا مع المسار المهني حتى يبين أن فرض صفة المنحرف يستوجب تعلما لمعايير بديلة تكون لها آثارا على هوية الشخص.

قائمة المراجع والمصادر:

أولاً: المراجع باللغة العربية: